Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

أعلام الإسلام

أحمد خاكي

قاسم أمين

دائرة المعارف الإسلامية

893.7112
K52C

45-39141

PT20-2006 Hacaby
12/3/45
C
343

لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

اعلام الاسلام

قاسم أمين

أحمد خاكي

ARMADO TIPOGRAFIA VARIAS

ملتزمو الطبع والنشر للكتاب
دار احياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

سيرته

كان يتوقّد فى عينيه الذكاء، وكان وسيما ، له شاربان غزيران ، ورأس كبير يزينه شعر أسود يصفّه على جبينه صفا .

إذا عددت سنى حياته جميعا وجدتها خمسة وأربعين عاما لا أقل ولا أكثر : حياة قصيرة ، لم يبلغ عنفوان الرجولة حتى قُضى عليه . كان قد اكتمل عقله وبرزت فى كل ناحية مواهبه ، ورأى خيال الجامعة المصرية يبدو له من وراء سجف المستقبل . كاد يحقق أملا كبيرا من آمال نفسه الكبيرة ، لكنّه قضى ولم يبلغ تلك الغاية العزيزة من غايات نفسه الطموح.

كان صديقا للجميع : آمن بالصداقة . ومات يبكيه الجميع كما يبكى الصديق الأصدقاء . كان حييا عطوفا خيّرا ، لم تؤخذ عليه ريبة فى خلق ولا فى دين . ضرب مثلا لمكارم الأخلاق فترفّق مع الجهلة وأنصاف المتعلمين ، وضرب مثلا آخر لشجاعة النفس والجهاد والدفاع عن الفكرة تأثر به الناشئون من رجال هذا الجيل .

كان صديقا للمرأة كما كان صديقا للرجل ، وكان يعشق الحرية للمرأة والرجل على السواء ، ودافع عن الحرية فى جميع مظاهرها : حرية القول ، وحرية الفعل وحرية العقيدة .

ثم كان أول من دعا إلى إصلاح المرأة لتصلح العائلة والأمة ، وكان فى دعوته مصلحا اجتماعيا توفّرت له أخلاق المصلحين فى سائر أمم الأرض .

ذلك هو قاسم أمين !

ولد فى أول ديسمبر سنة ١٨٦٣ ببلدة طره من ضواحى القاهرة حيث كان يقيم أبوه الأميرالاى محمد بك أمين فى عسكر مرابط هناك . ولمحمد أمين بك تاريخ لايخلو من الحوادث . فهو من أسرة تركية ولى بعض أفرادها السليمانية من أعمال العراق . وظلت الأسرة ردحا من الزمن تقوم بهذه الولاية حتى ظُنّ أنها كردية . ونشأ محمد بك فى السليمانية ومات والداه وهو ما يزال طفلا فكفله خاله وجدته لأمه . وبلغ وهو فى كنف خاله وحضانة جدته الخامسة عشرة . لكن ابن عمه الوالى كان قد عُزِل واستقر رأيه أن يرحل إلى الآستانة فخرج محمد الفتى فى ركاب الوالى المعزول .

واستقر به المقام فى الآستانة فترة من الزمان نشأ فيها بينه و بين ابن عمه الوالى السابق خلاف فرّق بينهما . وعاش وحيدا فى قلب المدينة الكبيرة حتى رأى أن يرحل منها إلى مصر . وسافر من الآستانة على ظهر سفينة

شراعية ، ودخـــل مصر فاختلط ببعض أبناء الترك الذين أدخلوه المدرسة الحربية . ونشأ بعد ذلك نشأة عسكرية .

أما قاسم نفسه فقد مال عن هذه النشأة العسكرية إلى النشأة القانونية التى تدرج فيها . ولـكن لعله ورث عن أبيه حب النضال والتمسك بالرأى . أرأيت كيف استطاع أن يمتطى أبوه البحر على ظهر سفينة شراعية مهاجرا من بلد إلى بلد ؟

وتعلم قاسم فى مدرسة الاسكندرية الابتدائية ثم بالمدرسة التجهيزية بالقاهرة (الخديوية الآن) وانتقل من تعليمه التجهيزى إلى مدرسة الحقوق والإدارة فنال شهادتها فى ٢٤ من أكتوبر سنة ١٨٨١ ، وسافر فى بعثة إلى فرنسا فى صيف ذلك العام . وأتم دراسته بكلية الحقوق فى مونبيليه وعاد إلى مصر فى ٢٥ أغسطس سنة ١٨٨٥ .

***

ولنا عند كل واحد من هذه التواريخ تعليق ينبغى أن نجمله لك ! فقد قيل إن قاسما فى نشأته المدرسـية لم يكن من المتفوقين فى الدراسة . ونقل المرحوم الهلباوى بك عن أحد زملائه فى الدراسة « أنه لم يكن بين الأوائل فى دراسته اللهم إلا فى السنة الأخيرة التى نال فيها شهادة الليسانس فى سنة ١٨٨١ فقد كان فى امتحان الليسانس أول الناجحين » .

وقيل لطلعت باشا — وهو الذى نقل عنه الهلباوى بك — « إن خاصة الذين عرفوا قاسما بنبوغه وفرط ذكائه كانوا يظنون أنه كان دائما فى أوائل زملائه فى الامتحان . فقال : نعم ! ولكنه ألف فى صغره أن يوزع جهوده بين دروسه و بين قراءة كتب الأدب الفرنسى والتاريخ فكان يحصّل ضعف ما يحصله الزملاء فى الدرس وفى المعارف العامة» وعلّق على ذلك الهلباوى بك فقال « وقد بقى ذلك شأنه لا يكتفى بعمل واحد فى الحياة . بل يجمع بين الأعمال والدراسات الشتى حتى كان فى القضاء قاضيا ، ومؤلفا بالفرنسية والعربية ، ومحررا للمرأة ، ودائب البحث فى الشريعة الإسلامية ، ومنشئا للجامعة ، ومؤسسا للجمعية الخيرية الإسلامية وغير ذلك من جلائل الأعمال»

نعم إن هذا يفسر لنا جانبا من نشأة قاسم أمين . فإنه لم يتلقّ العلم المدرسىّ كأنه أول العلم ومنتهاه . ولم يجلس إلى أساتذته ليتلقى منهم هذه المناهج التى نُعِدّها والتى يستظهرها طلبة العلم و يقتصرون عليها . بل لقد كان يرى أن الدراسة يجب أن تكون حرة . لذلك لم يقتصر على مناهج الدراسة كما يقتصر غيره ، و إنما أضاف إلى ذلك بحوثه الشخصية . وقد تناولت بحوثه الشخصية القانون والشريعة والتاريخ والاجتماع والأدب . حتى إذا ما أوفت سنو دراسته على الانتهاء جدّ فى الدرس فكان فى طليعة الحاصلين على إجازة الحقوق .

فقاسم أمين إذن كان متعدد النواحى منذ أن كان ناشئا يتلقّى العلم . ولولا تعدد نواحيه لما ذُكِر اليوم بين زعماء الفكر فى مصر . لو أنه اقتصر على دراسة القانون لما ذُكِر اليوم إلا كما نَذكر المغمورين ممن ولوا القضاء ثم ماتوا ولم يتركوا من الآثار إلا بالقدر الذى سمحت لهم به الوظيفة . لكنه كان ناشئا طموحا ذلك الذى قرأ لنفسه قبل أن يقرأ للامتحان، ودرس ليُرضى عقله وفكره قبل أن يرضى أساتذته وأولياءه . ولابد أنه كان يحس بتلك المتعة النفسية التى يحس بها المتشوّقون للعلم والمتشوّقون للبحث والدراسة . فقد ظل حياته دائب البحث: يقرأ ثم يقرأ. وكان اطّلاعه منظما لأنه كوّن عنده ثقافة ظهرت آثارها فى الكتابة والخطابة ثم فى العمل .

* * *

ثم لقد نشأ فى أخريات عصر إسماعيل وأول عصر توفيق . وكان كل وجه من وجوه الحياة العامة فى هذا العصر يدعو إلى التفطّن والتفكير . لقد كانت مصر خلال القرن التاسع عشر تحاول أن تبلغ من نفسها ما أدركته أوروبا . كانت هذه سياسة محمد على وكانت سياسة أكثر الذين جاءوا بعده من حكام مصر وبخاصة إسماعيل . وعلى هذا الأساس ذهبت بعوث إلى أوروبا، وعلى هذا الأساس أيضا ذهب قاسم أمين، فهو إذن أحد الذين جمعوا بين ثقافة الشرق وثقافة الغرب فى هذه الفترة من حياتنا القومية .

وقضى قاسم أمين أربع سنوات فى فرنسا يدرس القانون ، لكنه كان يتشبع بالثقافة الفرنسية ما شاء . لم تقتصر قراءاته فى هذه المرة أيضا على ما تستلزمه دراسة القانون ولا على ما تتطلبه الإجازة التى تغرّب من أجل الحصول عليها . وإنما قرأ الأدب الفرنسى بفهم وقرأ آثار الفكر الفرنسى بإسراف . ثم هو بعد ذلك تقلّب فى أنحاء فرنسا وفتح ناظريه ليرقب كل ظواهر المدنية التى حوله . فلم يعد إلى مصر إلا وكانت له خبرة بكل ما يعتور الحياة الفرنسية فى ظاهرها وباطنها .

***

« وعند عودة قاسم أمين من أوروبا اشتغل مساعدا للنيابة المختلطة فى أول ديسمبر سنة ١٨٨٥ ثم دخل إلى قسم قضايا الحكومة فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨٧ . وكان معظم موظفى أقلام قضايا الحكومة من الأجانب فأدخل قاسم وفتحى زغلول بعد ذلك ومصطفى فتحى فى أقلام القضايا فى أوقات متقاربة » .

ويعلّق على ذلك المرحوم الهلباوى بك مرة أخرى فيقول :

« وقد تعرفت بقاسم فى إبان وظيفته تلك . فقد كنت أترافع أمام محكمة بنها فى قضية ضد الحكومة التى كان يمثلها هو » .

« وكنت أتوقع ـ وقاسم خصمى فى هذه القضية ـ أن يشعر أحدنا بشىء

من الوحشة لاختلاف الجهة التى تخرج كل منها (الأزهر والمدارس الأوروبية) ولكنى إذ سمعته يترافع ويدلى بحجته لمصلحة الحكومة ضد موكلى شعرت بقلبى يدق إعجابا بحسن أسلوب هذا الخصم وحسن تقديره وعظيم كفايته . فاتصلت أرواحنا من تلك الساعة وقامت بيننا صداقة كأنها ترجع إلى عهد الطفولة » .

وارتقى فى سلك النيابة حتى كان رئيس نيابة بنى سويف فى يونيه سنة ١٨٨٩ . وكان أول عمل قام به حين ولى هذا المنصب أن أطلق سراح كثير من المتهمين الذين سجنتهم الإدارة عدوانا . وبقى سنتين فى بنى سويف انتقل بعدهما فى نفس المنصب إلى طنطا .

« وفى طنطا ذاعت بعض مواهبه حتى وصلت إلى الرجل الوحيد من العرابيين المحكوم عليه بالإعدام (وهو عبد الله النديم) ، وقد كان مختفيا بمديرية الغربية من سبتمبر سنة ١٨٨٢ تاريخ دخول الانجليز مصر . فقدّم نفسه لقاسم ليتصرف فى الأمر بما تقتضيه حكمته . فقام له من كرسيه وسافر معه إلى القاهرة ليلتمس له العفو عنه اكتفاء بما ذاقه مدة السنوات التسع التى اختفاها . وكان المرحوم رياض باشا رئيس الوزراء ووزير الداخلية فعمل معه لهذه الغاية ، ولم يرجع قاسم لطنطا إلا بعد أن صدر العفو عن عبد الله النديم » .

وفى ٢٦ يونيه سنة ١٨٩٢ عُيّن قاسم أمين وسعد زغلول ويحيى ابراهيم نواب قضاة بمحكمة الاستئناف بأمر واحد . ولم يَحُل حولان حتى كان قاسم وسعد مستشارين بمحكمة الاستئناف وحتى ارتفع مرتبهما إلى ألف جنيه فى العام » .

وكذلك ترى أنه بلغ فى الحادية والثلاثين ما لم يبلغه إلا الأفلون من رجال القضاء فى الخمسين . أليس فى هذا دليل على ذكاء خارق امتاز به قاسم أمين حين ولى القضاء بين الناس ؟

ثم قضى الأربعة عشر عاما الباقية من حياته وهو مستشار .

* * *

تلك بعض التواريخ . أردنا أن نذكرها قبل أن نبحث حياة هذا المصلح الكبير حتى نتثبت منها فى خلال حديثنا عن أفكاره وآرائه ومذاهبه . لكن فى حياته تواريخ أخرى لا تتصل بوظيفته ولكن تتصل بحياته العامة، وهى أكثر ما نعنى به فى هذا الكتاب .

فى سنة ١٨٩٤ دخل قاسم فى غمار الحياة العامة حين تولى الردّ على الدوق داركور . وقد كان هذا الكاتب الفرنسى من أكبر مَنْ أثر فى حياة قاسم أمين ، لا لأنه أراد تعليمه شيئا فعلمه ، ولكن لأنه كتب كتابا بالفرنسية ينقد المسلمين والمصريين فتصدى للرد عليه قاسم أمين . وتعلّم قاسم أمين من

هذا النقاش لأنه اضطر أن يبحث وأن يدقق البحث : وأن يقرأ كثيرا فى كتب الفقه والتشريع الإسلامى حتى يقرع الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان. وكان عليه بعد ذلك أن يوضّح أفكاره ويحدّدها، وكان عليه أن يعبّر عن آماله التى تكونت فى خافية نفسه منذ أن كان ناشئا يتقلّب فى أنحاء مصر وفرنسا .

وبعد سنة ١٨٩٤ اتجه قاسم أمين اتجاها عاما فقد ظل أربع سنوات أخرى يفكّر فيما كتبه ردا على الدوق داركور . ولعبت بعقله أفكار أخرى كان يختزنها ويخشى أن يبوح بها . وما لبثت هذه الأفكار أن حلّت فى نفسه محل الإيمان الوطيد ؛ فكتب مقالات فى « المؤيد » ظهرت تباعا من غير اسمه وحاول فيها أن يردف كل سبب من أسباب التدهور الاجتماعى فى مصر بالمظاهر التى يراها . وقد سمّى هذه المقالات « أسباب ونتائج » وعرض فيها كثيرا من نواحى النقد فى المجتمع المصرى . عرض فيها لأسس التربية فى مصر ، وتحدّث عن المال ، وتكلم عن المرأة — ولو أنه ترفّق فى ذلك ترفقا شديدا — ثم كتب مقالات أخرى سماها « حكم ومواعظ » وصف فيها الموظف المصرى أبلغ وصف ، وتعرّض لما يجب أن تكون عليه الوظيفة من الكفاية والمقدرة ، وتأثر العلاقة بين الوظيفة وبين الوطنية .

ثم كتب « تحرير المرأة » الذى أودعه رأيه فى إصلاح المجتمع فى مصر

بوجه عام ورسم فيه الدستور الذى آمن به لإصلاح المرأة حتى يَصْلُح هـذا المجتمع . وعرض فى كتابه للتربية بوجه عام ، وتعرّض للبحث فى الحجاب وتعدد الزوجات والطلاق . وخرج على الناس بهذا جميعه ، فأحدث ثورة فى الأفكار كانت فى نفسها رشيدة . لأنهـا بعثت أهل الدين على التفكير ، ولأنها بعثت الشباب على العمل ، ولأنها بعثت الشيوخ على التدبير ، ولأنها بعثت الجميع على الإصلاح .

واستَمِعْ مرة أخرى إلى تعليق الهلباوى بك على كل ذلك إذ يقول :

« وردّه على الدوق دار كور بشأن المرأة المسلمة أمر يستحق الالتفات ، فهو وإن كان يقوم على مشكلة اجتماعية ، فالبحث يرجع إلى مسائل دينية إسلامية محضة . ونحن قد تعلمنا أن الذين يضيفون إلى تربيتهم المصرية تربية أوروبية يعودون إلينا أقل عناية بالمسائل الدينية . فاشتغال قاسم بهذا الموضوع يدل على أن شخصيته المصرية الإسلامية لا تزال عنده مرتبطة بعزته القومية وشرف وطنه .

« بحثه فى هـذه الرسالة جرّه إلى البحث فى مسألة المرأة المسلمة . ولقد كانت حاجة مصر فى ذلك العصر إلى تحرير المرأة وتعليمها مسألة المسائل . وعمل قاسم فى تحرير المرأة سيضعه فى التاريخ موضع (المعلم الأول) ؛ فإن

إليه وحده فى هذه الأمة فضل هذه المحاولة التى تُوّجت بعد عشرين سنة من جهاده بالنجاح التام الذى نشهده اليوم » .

« كان مذهب قاسم فى تحرير المرأة من أشد المذاهب بغضا واستحقاقا للمحاربة عند كل الذين يستقون أفكارهم من رجال الدين . وكان قاسم يقابل هذه الحملات بما عنده من الشجاعة الهائلة والاستخفاف بالأذى . ولم يكن يدخر مجهودا للدفاع عن عقيدته والذين لم يتصلوا بحوادث ذلك الزمن لا يدركون خطورة ما يلحق بمن كان فى مركزه من العنف والاضطهاد » .

* * *

ثم مضت على تحرير المرأة سنتان ردّ فيهما عليه كثيرون ممن أحسنوا الرد وكثيرون آخرون ممن أساءوا فهمه . لكنه كان كلما تناقش فى عقائده ازداد بها تمسكا ورأى أنه من الكرامة ألا يضعف ولا يهن . بل لقد رأى من الكرامة أن يكتب كتابا آخر يؤيد به كتابه الأول ويزيد فيه الحديث عن المرأة وعما بلغته المرأة الامريكية الحرة بوجه خاص . لذلك كتب « المرأة الجديدة » فى سنة ١٩٠٠ وأهداه لأعز أصدقائه إليه وهو سعد زغلول .

فى ست سنوات أخرج قاسم أمين ثلاث كتب أولها بالفرنسية وثانيها وثالثها بالعربية ، وكلها تدور حول الجماعة المصرية والدين الإسلامى . لكنها تُظْهِرُ لك تطورا غريبا فى الأفكار . فهو فى أولها يعبّر لك عن آماله فى أن

تحيا أمته على الرغم من النقائص التى تطالع الباحث ، وهو يرى أن هـذه النقائص تتمثل فى الاستعباد الذى ضرب فى أصول الحياة المصرية منذ بضعة قرون . ثم هو فى ثانى كتبه يدافع عن تحرير المرأة حتى يبلغ بذلك تحرير الرجل ، لأنه يعلم أن المرأة هى الأسرة ، وأن الأسرة هى التى تُخرِج رجالا أحرارا أو غير أحرار . وهو يكتفى بأن يرد المرأة إلى الحجاب الشرعى . فهو فى كتابه الثانى يمثل وجهة النظر التى اتخذها الكثير من فقهاء المسلمين ، وهو يؤيد تحرير المرأة بآيات من الذكر الحكيم وبوقائع من تاريخ الإسلام. على أنه فى ثالث كتبه لا يريد تعليم المرأة فحسب، ولا تحريرها فحسب، بل هو يريدها عاملة تقوم بما يقوم به الرجل ، ويؤيد ذلك بما قرأه عن المرأة فى أمريكا وأوروبا . وكأنما تدرجت هـذه الفكرة عنده . فهى قد بدأت متواضعة لا يبغى من ورائها إلا ردّ حقوق المرأة المسلوبة لكنه انتهى بها فى كتابه « المرأة الجديدة » إلى المطالبة بكل الحقوق التى طالبت بها المرأة الأوروبية حتى آخر القرن التاسع عشر ولم تظفر بها إلا بعد الحرب العالمية الأولى .

اشتهر قاسم أمين بالتحدث عن المرأة والبحث فى شؤونها حتى لقد أصبح اسمه مقترنا بالإصلاح الذى نال مركزها فى السنين الثلاثين الأخيرة . لكنه

لم يقف عند حدّ المرأة فحسب بل لقد كان ذلك كما أسلفنا مقدمة لإصلاح المجتمع المصرى بوجه عام . وقد اتجه قاسم إلى نواح أخرى من الإصلاح تحدث عنها وبحث فيها وكتب وخطب وتكلمت أعماله هناك بالنجاح .

أما أجل أعماله بعد سنة ١٩٠٠ فعملان . أولهما تأسيسه « الجمعية الخيرية الإسلامية » وثانيهما اشتراكه فى تأسيس « الجامعة المصرية » سنة ١٩٠٦ . وأول العملين جليل لأنه كان أول تجربة قام بها المصريون فى سبيل تنظيم البر والإحسان ، أما ثانيهما فهو أول مجهود لتحرير العلم من الحدود والقيود . وقد كان قاسم أمين من بين الأعضاء الأوائل الذين وجهوا الجمعية الخيرية فى سبيل البر . وكان ثانى اثنين رأسا الجماعة التى فكرت فى الجامعة المصرية وخرجت بالمشروع من حيّز القول إلى حيّز العمل : أما ثانيهما فهو سعد زغلول . لكنه مات قبل أن يتم المشروع : مات قبل أن تفتتح الجامعة المصرية بثلاثة شهور .

***

وفى ليلة الثالث والعشرين من شهر إبريل سنة ١٩٠٨ مات قاسم أمين بعد أن ألقى خطابا فى نادى المدارس العليا ترحيبا بطالبات رومانيات . فإذا أنت تبصّرت فى هذا التاريخ القصير الذى عرضته عليك رأيت أية حياة

حافلة كان يبشّر بها ذلك المصلح العظيم . كانت قبسا من حياة . لكنها كانت قبسا أضاء السبيل لمن تلاه ممن شغفوا حبا بالإصلاح . وأنت تبحث فى حياة المصريين الذين عاشوا فى عصره والذين ندين لهم بحسن التفكير وحسن الإرشاد ، فتراه بينهم فذا . لقد عاش الكثير منهم للإصلاح السياسى أو للإصلاح الدينى ، لكن هذا الذى نتحرّى سيرته الآن كان يعيش للاصلاح الاجتماعى .

شخصيته

نشأ قاسم أمين فى بيت من بيوت الطبقة الوسطى فتحلى بما يتحلى به أبناء هذه الطبقة من حرص على دستور خلق خاص . فأبناء الطبقة الوسطى دائما هم الذين لم يسفّوا إلى دَرَك الطبقة الدنيا حيث تعيش الرذيلة غصبا ، ولم يعلوا إلى مستوى الطبقة العليا حيث يدفع الشباب والفراغ والمال إلى ارتكاب الرذيلة . بل لقد عاش فى بيت تسيطر عليه مكارم الأخلاق من حيث الصدق والإخلاص والأمانه ، وصلة الغنى للفقير ، وتراحم الكبير والصغير . كل هذه — وهى أسس الخلق العام — هى الفضائل التى يتربى عليها أبناء الطبقة الوسطى ، وقد تربّى عليها قاسم أمين .

وقد أجمع الذين عرفوه أنه كان حييّا . وشيمة الحياء التى طُبع عليها قد لازمته فى حياته الخاصة . ولكن الجرأة ، أو قل الشجاعة الأدبية كانت

أكبر ما يميز خلقه العام . ولقد تجد أشد الناس حياء هم فى نفس الوقت أكثرهم تحديا وأشدهم شجاعة قلب . ذلك أنه إذا أحسّ فرد بأنه حيىّ فإنه يحاول جهده أن يعالج ذلك الحياء . وهو فى معالجته حياءه يستطيع أن يملك نفسه ويستطيع بعد ذلك أن ينسى حياءه فى سبيل المبدأ الذى اعتنق أو الفكرة التى يدافع عنها . لذلك قد تبحث حياة كثير من المصلحين فيروعك من بعضهم أنه حيىّ عطوف فى حياته الخاصة ، وأنه شجاع جرىء فى حياته العامة . ومثل هذا يظهر لنا فى حياة قاسم أمين .

على أنه بلغ من الاعتداد بالنفس مبلغا بعيدا ، وقد أسلفنا أنه ربما رجع ذلك إلى طبيعة ورثها عن أبيه . وقد رأيت كيف كان أبوه معتزًّا بنفسه وكيف اختلف مع رب عائلته فى الآستانة وكيف هجرها إلى مصر على ظهر سفينة شراعية صغيرة . وحياة قاسم أمين فيها كثير مما يدلك على اعتداده بالنفس . وعلى أنه كان عنيدا لا يلين ولا يهن فى سبيل المبدأ الذى اعتنق أو الرأى الذى رأى . وقد ذكر الهلباوى بك مثلا لذلك فقصّ رحمه الله القصة التالية .

« عرض رأى فى الجمعية الخيرية الإسلامية لوقف كل ما تملك على الوجوه الخاصة بأغراض الجمعية . ولما كان قاسم يرى أن الوقف كثيرا ما يعطّل

على أصحاب الشأن فيه التصرف بما تقتضى الحاجة والظروف التى لا يمكن الإحاطة بها عارض معارضة شديدة .. وكانت الأغلبية ترى غير ذلك فبقى قاسم مُصرًا على رأيه قائلا : إن هذه المسألة من المسائل الأساسية التى لا يمكن أن أخضع فيها لحكم الأغلبية . بل واجبى فى هذه الحالة يقضى علىّ بالاستقالة من خدمتها . فتراجع الجميع وسلّموا برأيه . ولقد مات قاسم ووقينا خطر استقالته و بقيت الجمعية من سنة ١٩٠٨ ولم يفكر أحد من أعضائها إلى اليوم فى الخروج عن رأيه » .

مثل هذا الاعتداد بالنفس ، أو قل مثل هذا التمسك بالرأى ، كان أساسيا فى حياة مصلح مثل قاسم . ذلك بأن لكل مصلح رأيا يذود عنه : يحسبه الناس من حوله غريبا أو ضارا أو غير ملائم . لكنّ المصلح ذو خيال واسع فهو يرى الصواب كل الصواب فى الرأى الذى ارتآه . ولولا شجاعة النفس أو قل الصلابة أو قل العناد لَمَا استطاع مصلح أن يخرج باصلاحه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة .

* * *

ونفس قاسم أمين كانت نفس أديب . والأديب يحس بما لا يحس به الآخرون ويشعر بخطرات دقيقة لا يشعر بها الآخرون . فهو من أول المصريين الذين أحبوا فن الغناء ، ومن أول الشرقيين الذين تحدثوا عن وشائج الرحمة

والحب بين الرجل والمرأة . ثم هو من أول الناس الذين استكشفوا الغرائز واستطاعوا أن يفهموا كثيرا من الدوافع الخفية التى يصدر منها سلوك الإنسان. وقد أعانته نفسيته الأدبية على أن يلحظ من الناس دقائق أمورهم وعلى أن يفسّر تناقضهم بين القول و بين العمل ، وأن يدرك المعاذير التى يختلقونها . فهو يعلم تماما لِمَ يتزوج رجل من أربع نساء ، ولِمَ يتخذ رجل آخر بعض الجوارى ، ولِمَ يتحدث الموظف المنافق عن حاجة الدولة إلى الإصلاح ، ولِمَ يحاول رجل الدين أن يُدْخل الهوى فى تفسير آيات الدين ؟ ولأنه أدرك هذا النفاق ، ولأنه علم أن بين الفعل و بين القول هوّة سحيقة ، فقد حاول أن يردّ كل شىء إلى أصوله الأولى ، وحاول أن يفسّر كل فعل بكفائه من الغرض أو اللذة أو الهوى .

ونفسيته الأدبية أيضا هى التى طوّعت له أن يتأثر بالأوساط التى جال فيها . تأثّر بخير ما كان فى الوسط المصرى فأشرب روح الإسلام منذ أن كان ناشئا . وتأثر بالوطنية المصرية الشابّة ، فكان وطنيا من طراز خاص . وتأثر بدراسته الفرنسية فآمن بما كان يتدفّع فى الوسط الفرنسى من أفكار الحرية والتقدم ، وتأثر بالحضارة المادية فى أوروبا فدعا إلى اتباع خطاها . لقد تأثر بكل هذه العوامل وأنتجت كل هذه العوامل هذه الشخصية التى جمعت بين خير ما أنتجه الشرق و بين خير ما أنتجه الغرب . لكنه لم يكن له أن

يتأثر بكل ذلك إلا إذا كان له ذلك الإحساس المتوفّز الذى يميّز الأدباء .

***

لقد ذهب الدكتور هيكل باشا فى حديثه عن قاسم أمين إلى أنه كان صاحب مزاج عصبى ينفعل للجليل والقليل من الأمور وشبّه أعصابه « بأوتار تتأثر بملامسة الحوادث تأثرا سريعا ينقل إلى نفسه الإحساسات المختلفة ، وينقل إلى الخارج مظاهر هذه الإحساسات على النظام الذى تعطيها إياه قوة ملاحظته الحادة الدقيقة » وكانت هذه الأعصاب تتوتر فى كل حادث من الحوادث أو كل واقعة من الوقائع التى تُمثَّل أمامه . فإذا هو توترت أعصابه أمام تكرر المشاهد والمناظر وأمام جمود المحيطين به دون التأثر بما يراه هو ويلاحظه ، ترك الناس إلى وحدته آملا أن يجد فيها من الطمأنينة والسكون ما يردّ إليه هدأته ، وكذلك تبقى هاته الحال العصبية تتناوبه حتى تدفعه ليكتب أجمل ما فى كتابيه « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » وليحفظ فى أوراقه الخاصة بعض كلمات بديعة أظهرتها الظروف بعد وفاته » .

وهذا الذى كتبه الكاتب الكبير هيكل باشا يصوّر هذه النفس المحسة. فهو إذ يجول فى محيطه المصرى ينفعل لآثار الوسط المصرى، فيرى وهو صبى يافع أسوأ ما تقع عليه أعين الصبيان فى حفلات العرس ، ويألم حين يرى عصا الفقيه تهوى على ظهور الأولاد فى الكتاتيب ، ثم هو يذهب إلى

فرنسا فيروعه هذا البناء السامق الذى يطالعه فى باريس ، وهو يلحظ الشعور القومى عند الفرنسيين فيلتهب له إحساسه . وهو يزور متحف اللوفر فتتوفز كل عواطفه ، وهو يرتد إلى مصر فيسوءه من بنى وطنه مظاهر الجمود . يرى سيدة متحجبة تمشى فى شارع الدواوين تهتز كأنها فى مرقص فتثور حفيظته ، ويتبع الموظفين إلى مكاتبهم ، وأصحاب الثروة إلى مزارعهم ، فيسخر من اولئك وهؤلاء . ثم هو يضرب بنظره إلى البيوت المصرية فيرى كيف يُعامل الصبيان والفتيات معاملة تميت فى الأولاد روح الرجولة ، وتئد فى الفتيات روح الظفر . كل هذه الحوادث وآلاف مثلها هى التى كونت قاسم أمين الرجل . هى التى كانت تهبط على أعصابه فتتوتر لها أعصابه . وهى التى خلقت هذه الشخصية الأدبية التى تحدثنا عنها وسنتحدث عنها فيما بعد .

***

ولكن لعله لم يتأثر فى حياته كرجل كما تأثر « بالصداقة » وإذا نحن استطعنا أن نفهم رأيه فى الصداقة فقد فهمنا حياة قاسم أمين كمصلح اجتماعى وفهمنا كذلك دفاعه عن المرأة واحتفاله بالعلاقة بين الزوج وزوجته .

« الصداقة » هى أساس كل تفكير اجتماعى ذهب إليه قاسم أمين ، لأنها هى الأساس الذى بنى عليه حكمه على الفروق بين الشرقيين و بين

الغربيين . وهى المعيار الذى اصطنعه لنقيس به مقدار ما بين الرجل و بين المرأة من علائق الرحمة والمودة .

وقد كان « صديقا » بأوسع ما نعنيه من كلمة صديق . وهو فى مرة يصف مظاهر الصداقة بينه و بين بعض أصدقائه فيقول : « أكبر سرور : السرور الوحيد الذى يخفف عن الإنسان حِمْل الحياة و يرغّبه فى بقائها ، و ينسيه الزمن والساعة ، و يجعله يتمنى أن يحكم عليهما بالوقوف ، هو أن يوجد فى بيت صديق عزيز و يجلس على كرسى يستريح فيه محاطا بأشياء اعتاد أن يراها بنظره و يلمسها بيده » .

وهو حينما يتكلم عن الحب بين المرأة و بين الرجل يذكر أنه ينبغى أن يكون من نوع هذه الصداقة التى وصفها بين الرجل و بين الرجل . فهو يقول عند تدليله على وجوب تربية المرأة :

« كل منا يذوق حلاوة الساعات التى تمر به بدون أن يشعر بها حينما يطول الحديث بينه و بين صديق له ، وتختلط أنفسهما بعضها ببعض ، حتى يذهل كلٌ عن أيهما يتكلم وأيهما يسمع . فهذا السرور يتضاعف بلاشك إذا وُجِدَ هذا التوافق بين عقولنا وعقولهنّ ، ونفوسنا ونفوسهنّ . ولهذا فإنا نشفق عليهنّ ونَحِنّ إليهنّ ونعذرهنّ . ولكن لا تكمل محبتنا لهن لأن الحب التام هو ذلك التوافق وهو معدوم » .

ثم هو لا يفتأ يذكر الصداقة فى كتاب « تحرير المرأة حتى كأنما لا يمل ذكرها . فعنده أن رجال العصر الجديد « لا يرضون الارتباط بزوجة لم يروها . وإنما يطلبون صديقة يحبونها وتحبهم .. » . وعنده أن الرجل المتعلم « إنما يتخذ لنفسه بالزواج قرينا صالحا يمده بالمعونة فى شؤونه ويؤنسه فى وحدته ويسعفه فى عمله ويقوم معه على بنيه » . وأنه « يختار زوجته لتكون صاحبة له مدة الحياة » . أليس فى هذا دليل على أن هذه النفسية التى ندرس كانت نفسيةً صدوقا ، وأنها كانت تضع الصداقة فى مكان سام من تقديرها . لقد تحدث عن الزوجة مرة فقال إنها صديقة ، وقال عنها إنها قرين ، وقال عنها إنها صاحبة . وكأنما لم يجد أكثر من هذه المترادفات ليصف هذه الصداقة التى كان ينشدها بين الرجل وبين المرأة .

ثم إنه كان فى حياته الخاصة نعم الصديق . وقد تحدث إلينا الهلباوى بك فقال : إنه التقى بقاسم لأول مرة وهما خصمان ، ثم انتهيا من قضيتهما وهما صديقان كأنما قد عرف كل واحد منهما أخاه منذ الطفولة . كذلك كان صديقا لفتحى زغلول . فهذا يكتب عنه فى « سر تقدم الإنجليز » صديق قاسم أمين بك ، وذلك يتحدث عنه فى « تحرير المرأة » فيقول صديق فتحى زغلول بك . ولكن ربما كانت أكبر صداقة ظفر بها هى صداقة سعد زغلول .

ولقد تبحث فى كل ما كتبه الأصدقاء عن الأصدقاء فلا تجد أروع من هذه الكلمة التى كتبها قاسم أمين لصديقه سعد زغلول فى إهدائه إياه كتاب « المرأة الجديدة » :

« إلى صديقى سعد زغلول

فيك وجدت قلبا يحب وعقلا يفكر وإرادة تعمل . أنت الذى مثّلت إلىّ المودة فى أكمل أشكالها ، فأدركتُ أن الحياة ليست كلها شقاء وأن فيها ساعات حلوة لمن يعرف قيمتها . من هذا أمكننى أن أحكم أن هذه المودة تمنح ساعات أحلى إذا كانت بين رجل وزوجته . ذلك هو سر السعادة الذى رفعت صوتى لأعلنه لأبناء وطنى رجالا ونساء » .

فلنذكر عندما نتحدث عن قاسم أمين وتفكيره فى المرأة أنه كان ينعم بصداقة رجل عظيم مثل سعد زغلول . وأنه كان يدعو بأن تقوم الصداقة بين كل رجل وصاحبته . وهو لم يَدْعُ إلى تربية المرأة وتثقيفها إلا لأنه كان يرى أن التفاهم من بين أسس الصداقة ، وأنه لا يمكن أن تكون صداقة بين الرجل وبين المرأة ما دام أن الرجل أرقى من زوجه ثقافةً وأوسع منها محيطا . ثم لنذكر أنه هو نفسه كان يعيش فى حلقة من الأصدقاء بذل لهم من نفسه وحبه بمقدار ما بذلوا له ، وكفاه أن كان من بين هؤلاء سعد زغلول .

* * *

ثم كان قاسم أمين صاحب شخصية وطنية مثقفة . لم تكن شخصية بسيطة تستطيع أن تلمح فيها عضدا واحدا بل كانت شخصية معقدة . أما الوطنية عنده فقد كانت أصيلة لأنه لم يكن يفكر فيها تفكيرا سياسيا وإنما كان يفكر فيها تفكيرا اجتماعيا عمرانيا . فهو يعبر عنها حين يتحدث عن أسس التربية ، فيدعو إلى تربية النشء على أصول الوطنية الحقة ، وعلى مبادئ الإيثار والجود بالصالح الشخصى فى سبيل الصالح العام ؛ ثم هو يعبر عنها حينما يتحدث عن تربية المرأة فيرى أن تربيتها تربية للأمة نفسها ، ثم هو يعجب بالوطنية فى فرنسا ويعبر أصدق تعبير عن الوطنية المصرية حين يكتب فى مذكراته كلمة عن ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ يوم أن مات مصطفى كامل ولأنه وطنى ولأنه قد تثقف ثقافة أوروبية فقد كان له نظرتان إلى أوروبا تكادان تختلفان كل الاختلاف . النظرة الأولى هى النظرة القومية : نظرة السخط على أوروبا والنظرة الثانية هى النظرة العالمية : نظرة الإعجاب بأوروبا

كان يعلم قاسم أمين أى افتئات على حقوقنا وأى إجحاف وقع على آبائنا وأجدادنا حينما تحجرت الامتيازات الأجنبية فضربت بالفساد فى جذور الحياة المصرية . كانت الدول الأوروبية ، لا ترعى حرمة فى سبيل مصالحها الخاصة . وكان القنصل الواحد يحكم شبه مملكة مستقلة لا تحترم قانون الدولة ولا تدفع ضرائبها ولا تلتزم بواجباتها . وكان يعلم قاسم أمين كما كان يعلم

الكثير من المصريين أن فى هذا تعطيلا لتقدم مصر المنشود . على أنه كان لقاسم أمين نظرة إعجاب أخرى تختلف عن هذه كل الاختلاف . كان يعلم أن فى البلاد الأوروبية حرية شائعة بين الأفراد والجماعات وأن التقدم المادى الذى بلغته قد قام على أساس من الخلق المتين ، وأن الجرأة والإقدام والشجاعة أجزاء متماسكة من هذا الخلق . وكانت وطنيته نفسها تنقلب إلى شعور بالغيرة ، وكانت غيرته تدفعه إلى الدعاية لهذه المبادئ الأوروبية التى سلمت له من دراساته المختلفة وقراءاته الواسعة .

لذلك كانت هذه الشخصية مزدوجة تجمع بين ثنائيات تحسبها فى أول الأمر نقائض . كان يحب المسلمين ويدافع عن عقائدهم ضد الذين خاضوا فيها عن جهالة ، وكان فى نفس الوقت يكره من المسلمين استكانتهم إلى الرذائل التى ورثوها . وكان وطنيا ساخطا على أوروبا ، وكان وطنيا يدعو إلى اتباع خطوات أوروبا فى نفس الوقت . هذه الشخصية المزدوجة ، هى التى تبدو فى كل ما كتبه قاسم أمين . وقد تراوحت شخصيته هذه فى كل ما كتب حتى أساء فهمه الكثيرون لأنهم لم يدركوا المحنة التى يقع فيها مسلم وطنى يثور بالتقاليد ويعجب بما أتى به أهل الغرب .

لقد بحث كثير من النفسيين شخصية الإنسان وانتهى بعضهم إلى أن لكل إنسان أكثر من شخصية واحدة . لست أريد أن أذكرك

« بدكتور جيكل ومستر هايد » ولا بأية واحدة من هـذه القصص النفسية الحديثة ؛ ولـكن لقد ثبت أن لـكل إنسان أكثر من محيط واحد يكوّن شخصيته . فإذا هو اختلط بإخوانٍ له كوّن اجتماعه بهم شخصية خاصة به قد تـكون مَرِحة وقد تـكون بسيطة يسيرة . وإذا هو اضطرب فى زحمةٍ من الأجانب الذين لا يعرفهم تقمصته شخصية أخرى قد تـكون كئيبة حزينة . وكذلك قل عن الفرد بوجه عام : إن له شخصيةً عالميـة حين يتثقف بثقافة عالمية ، وله شخصية قومية محدودة حين يكون فى مجموعةٍ من أبناء وطنه وله كذلك شخصية عائلية أخرى حين يسكن إلى زوجه و بنيه . وقد يجمع الفرد بين هـذه الشخصيات . فهو مرة عَطوف طروب ، وهو فى أخرى جادّ غير هازل ، وهو فى ثالثة يحس بأنه جزء من عالم عريض ، وهو فى رابعة يحس أنه وطنى أو ربّ عائلة . والإنسان يحاول فى حياته الخاصة أن يؤلّف بين هذه الشخصيات جميعاً لـكنها تتناو به حين يتقلب فى وجوه الحياة لطلب الرزق أو المجد أو الجاه .

والشرقيون الذين تثقفوا بثقافة الغرب وعاشروا أهل الغرب ردحا من الزمان، والذين أُشْرِبوا أصول المدنية الغربية قد امتازوا دائما بأن لهم شخصيتين تكاد تظهر كل واحدة منهما منفصلةً عن الأخرى . أما الشخصية الأولى فهى الشخصية الشرقية التى نشأوا عليها : الشخصية التى تحتفظ بالتقاليد والعقائد

الأولى وهى مستمدة من بيئة الإنسان حين نشأ فى المهد . أما الشخصية الثانية فهى الشخصية الغربيـة التى كوّنتها البيئة المعنوية الأخرى . الشخصية الأولى هى التى تعاود الإنسان كلما حنّ إلى بلده أو دينه ، والشخصية الثانية هى التى تملك عليه التفكير حينما يريد أن يقتدى بأهل الغرب . والشخصيتان يتعاوران الإنسان فتحدثان أزمة حادة أو قل محنة نفسية لا يُقدَّر مداها إلا الذين تمرسوا بها ممن آمنوا بالشرق منبتهم الأول ، وآمنوا بالغرب حين أصبح مثابتهم الأخرى . هى أزمة نفسية حادة لأن الشرقى من هؤلاء يحاول دائماً أن يوفق بين عقائده التى اختلطت بقلبه ، و بين ثقافته التى نشأت عقله ؛ و بين القلب والعقل فجوة قد تتسع بعض أحيان وتتسع حتى لا سبيل إلى التئامها .

كذلك كان قاسم أمين من أولئك الذين ازدوجت شخصيتهم . فهو يضع قدماً فى الغرب وقدماً أخرى فى الشرق ؛ وهو ينظر بعين الى أوروبا ويرنو بالعين الأخرى الى مصر . وهو بعد ذلك حامل ثقافتين حاول أن يلائم بينهما . وهو قد وجد نفسه فى ذلك الموضع الذى وصفنا ، وهو قد أصيب بأزمة نفسية حادة حين أخذ نفسه بالتوفيق بين الشرق و بين الغرب ، فلا تعجبنّ إذا بدت لك شخصيته الشرقية المسلمة فى أحيان ، و إذا ظهرت لك شخيته الأوروبية المتفرنجة فى أحيان أخرى . ولا تحسبنّ أنه متناقضٌ حين

يرد على الدوق داركور فيذكر فضائل الإسلام ومصر، وحين يكتب فى تحرير المرأة فيذكر نقائص المسلمين والمصريين. ولا تلومنّه إذا نظر إلى أوروبا فى مرة نظرة هادئة مستكبرة. فليس كل هذا إلا نتيجة لتلك الشخصية المزدوجة التى حاولنا أن نبسط الكلام فيها.

وحسبنا أن نذكر أنه كان وطنياً وأن الوطنية عنده كانت متعددة النواحى. فلم تكن وطنيةً مدافعة فحسب، ولم تكن وطنية، معمرة فحسب، ولم تكن وطنية ساخطة فحسب بل كانت وطنية معقدة تشمل كل هذه النواحى. وهو فى ذلك يمثّل طرازاً خاصا من البيئة التى ولد فيها، بل هو ثمرة من ثمرات الوسط المصرى والوسط الأوروبى حينما امتزجا معاً.

***

وبعد فقد وصف قاسم أمين «الرجل المتعلم» فى كلمات نود أن نتلوها عليك لأنها تنطوى على وصف ينطبق كل الانطباق على قاسم أمين نفسه.

«الرجل المتعلم يحب النظام والتنسيق فى منزله، وله ذوق مهذّب يميل إلى الأشكال اللطيفة، والإحساسات الدقيقة، والالتفاتات الرقيقة، ويبلغ الاهتمام بها عند بعض الأفراد حدًّا ينتهى إلى إهمال الأمور المادية. يفهم بكلمة ويود لو يفهم بالإشارة. يسكت فى أوقات ويتكلم فى أخرى ويضحك

فى غيرها . له أفكار يحبها ، ومذهب يشغله ، وجمعية يخدمها ، ووطن يعزه . له لذائذ وآلام معنوية ، فيبكى مع الفقير ، ويحزن مع المظلوم ، ويفرح بالخير للناس . وفى كل فكرة تتولد فى ذهنه وإحساس يؤثر على أعصابه ، يود أن يجد بجانبه إنساناً آخر فيشرح له ما يشعر به ويتسامر معه » .

ذلك هو « الرجل المتعلم » عند قاسم أمين .

وذلك عندنا هو قاسم أمين نفسه .

عصره

(١) آثار البيئة المصرية

كان العصر الذى نشأ فيه قاسم فترة تجلّت فيها آثار الهزيمة السياسية ومظاهر النهضة الأدبية والمعنوية فى وقتٍ معاً . فقد هُزِمت مصر يوم أن انجلت سنة ١٨٨٢ عن الاحتلال البريطانى ، لكنها لم تخمد روحها . فمنذ تلك السنة ظلّت روحها حيّة تخبو أحياناً وتتألق أحياناً أخرى حتى اشتعلت بعد الحرب العظمى . كان العصر مليئاً بحوادث التاريخ ، لكننا لن ندرك كنهه حتى نبحث أموراً شتى : أما أول هذه الأمور فهو أمر العلاقة بين الشرق و بين الغرب ، وأما ثانى هذه الأمور فهو حركة الإصلاح الدينى والأدبى والعلمى التى شملت الشرق وتزعمتها مصر ، وأما ثالث هذه الأمور فهو موقف قاسم أمين ومبلغ تأثره من كل هذه الحركات .

نقول ذلك ونحن نعلم أن الفرد سواء أكان عظيما أم غير عظيم فهو متأثر

بالبيئة التى يعيش فيها . أنه يتأثر بالبيئة المادية التى ينشأ فيها وليدا وطفلا وفتى وهو يتأثر بالبيئة المعنوية التى تخلق خياله وتغذى عقله وتنمى خلقه . وقاسم أمين كما رأيت قد دار فى بيئات مصرية شرقية مسلمة ودار فى بيئات أخرى فرنسية غربية مسيحية . فإلى أى حد تأثر من كل واحدة من هذه البيئات ؟ ذلك ما نريد أن نبسطه بعض البسط حتى نرى الوسط الذى أنبت قاسم أمين.

* * *

حين هُزمت مصر فى سنة ١٨٨٢ كانت هزيمتها السياسية حافزا لنهضتها الدينية والعمرانية والأدبيـة . وما نزال نحن إلى اليوم مدينين لتلك الجماعة التى قامت فى أخريات القرن التاسع عشر . فأفرادها هم الذين وضعوا أسس الحيـاة المصرية وحاولوا أن يبصّروا الناس بمواضع الفخر فى تاريخهم ، وبمواضع القوة فى دينهم . فقامت مدرسة وطنية مثقفة حاولت أن تنفخ فى روح مصر وقد أفلحت فى أن تخلق جيلا جـديدا أقبل على الحياة يزجيه الأمل الدفّاع .

والحركة التى ظهرت بعد سـنة ١٨٨٢ لم تـكن فى الواقع إلا تـكملة للحركة الفكرية التى نشأت فى عهد اسماعيل . أو قل إنها لم تـكن إلا نتيجة للحركة القومية العامة التى بدأت فى عهد محمد على . هـذه الحركة الفكرية

أو النهضة الأدبية — سمِّها ماشئت — كانت قد اضطربت حينما قامت الثورة العرابية . وتشقت الكثيرون بعد هذه الهزيمة السياسية ووقف الجميع ينتظرون حينما فشل عرابى ، لكنهم أقبلوا على الحياة بعد استقرار الثورة وهم مؤمنون بحق مصر فى الحياة العامة . وقد احتكت هذه الفئة الجديدة بالتفكير الأوروبى فاستوعبت كثيرا من الأفكار الغربية التى استقتها من مصادرها الأولى ؛ وازدهرت هذه الفئة فى أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وبلغ من تقدير اللورد كرومر لهم أن شبّه واحدا منهم بالچيروند فى أيام الثورة الفرنسية . والحق أن كثرتهم كانت تشبه الچيروند فى التعلق بالمثل الأعلى ، وفى الإيمان بسمو الفكرة ، وفى الثقافة والشجاعة والإخلاص

كان بين هؤلاء الشيخ محمد عبده وجمال الدين الأفغانى وانضم إليهم قاسم أمين وسعد زغلول . وقد اجتمع هؤلاء لا على أن يكوّنوا حزبا ولا ليدافعوا عن فكرة سياسية بعينها ؛ وإنما هى الحوادث والميول التى ربطت قلوبهم . وكانت الوطنية المصرية قد فقدت قليلا من الثقة حين ضعضعها الفشل بعد الثورة ، لكنها بدأت تلتئم رويدا رويدا فابتُنيت على أسس أخرى تخلو من الكفاح العسكرى ولو لَمْ تَخْلُ من كفاح الفكر . ونمت فى أعقاب القرن الماضى تلك الفئة المثقفة التى مثلت فى مصر نفس الدور الذى قامت به الطبقة الوسطى المستنيرة فى إنجلترة وفرنسا . فكانوا هم رسل الحياة الأوروبية

وكانوا هم زعماء الإصلاح : درس الكثير منهم القانون ، ودرس بعضهم الفلسفة، وتعمق بعضهم فى دراسة الفقه الإسلامى ؛ فكانوا زعماء الفكر فى مصر بل لقد نشأ بينهم الزعيم السياسى مصطفى كامل .

* * *

ولقد كان الشرق والغرب فى خلال تلك الفترة فى كفاح ظاهره العلم والدين والثقافة وباطنه الاستغلال المادى . ولا يمكننا أن نقدر العلاقة بين الشرق وبين الغرب حتى نفحص حركة الكشف العلمى فى خلال القرن التاسع عشر ، وحتى ندرس أطماع الدول الأوربية فى القارة الافريقية شماليها وجنوبيها. ولم تكن مصر فى هذه الفترة إلا جزءاً من الشرق يحاول أن يغتاله الغرب سياسيا ويستغله اقتصاديا . ولم يكن الأمر أمر حكومة واحدة فحسب ولا أمر شعب واحد فحسب، بل كان نصف العالم الغربى يغير على نصف العالم الشرقى. وكان العالم الغربى يسمّى ذلك « تجارة » أو «علما» أو «مذهبا إمبراطوريا» أو « عبء الرجل الأبيض » أو ما شاكل ذلك . وكان العالم الشرقى يستيقظ من سبات عميق يكاد يبهر عينه العلم الجديد ، وتكاد تذهله قوة الحديد والنار .

ثم إن فريقا من كتاب الغرب كان قد بدأ يؤمن بنظرية « الجنس » وقد كانت هذه النظرية غامضة يرددها علماء النصف الأول من القرن التاسع

عشر حتى أتيح لها عالم فرنسى هو الكونت جوبينو فى سنة ١٨٥٨ . فهو الذى فصّلها ودافع عنها ودعا إلى الإيمان بها . وقد ذهب جوبينو إلى أن الجنس الأبيض قد تفرّد بكل الخلق العظيم وأن ما عداه من الأجناس فهو عالة عليه . الجنس الأبيض عنده قد اختص بالجمال والذكاء والقوة فى تاريخ الحضارات — حتى الصينية — وكل حضارة عالمية قد اشتقت وجودها من الجنس الأبيض . ولا يمكن لجماعة إنسانية أن تبلغ أى مدى من العظمة والتقدم حتى تحتفظ بالدم الذى ورثته عن سلفها الأول : وهو هذا الجنس العظيم .

وقد تأثر الكتاب الآخرون بما ذهب إليه جوبينو حتى فرقوا بين الجنس الآرى وبين الجنس السامى، وحتى اتخذها دعاة التوسع فى الفتح أداةً للتجنى على أهل الشرق من تونس والجزائر ومراكش ومصر . وعجيب أن يكون رينان وهو من تعلم مكانه بين الفلاسفة من مؤيدى هذه التفرقة، ومن الذين تحدثوا عنها بحماسه اتخذت ذريعة فى الحركات الاستعمارية التى قامت بها فرنسا . فقد ذهب رينان إلى أن الأمم السامية « قصيرة الخيال جافة التصور تدرك الأشياء إدراكا أوليا ولا تتعمق فى بحثها ، ولا تسترسل فى كشف الحقائق ومعرفتها وتحكم على الأشياء لأول وهلة حكم المعتقد الجازم بصحة الشىء الذى أقنعته التجاريب والبراهين القطعية . خيالاتها محدودة

وإدراكاتها محدودة ، ونظاماتها الاجتماعيـة لا تعرف التطور ... وليس فى نظام حكومتها ما يدل على سعة الإدراك ولا على أثر التفكير وليس لهـا فى عالم الأدب أثر يذكر .. بل ليس لها فلسفة » وكذلك قامت فئة من الكتاب الفرنسيين تصور الإسلام فى صورة الدين الخرافى العتيق والمسلمين فى صورة الضعاف العجزة، وقد كان من هؤلاء هانوتو الذى ردّ عليـه الأستاذ الإمام ودوق داركور الذى ردّ عليه قاسم أمين .

أجل فقد كان فى الميدان الشرقى مجاهدون آخرون يحاولون أن يدافعوا عن أنفسهم وعن بلادهم بما أوتوا من قوة الحجة والإقناع . ولعلهم لم يكونوا يريدون أن يقنعوا الكتّاب الآخرين بقدر ما أرادوا أن يقنعوا أنفسهم وأن يقنعوا أهل الشرق أجمعين . وكان من هؤلاء تلك الفئة المستنيرة فى مصر التى قامت بعد سنة ١٨٨٢ والتى قلنا إنها احتفظت بأصول النهضة المصرية فى القرن التاسع عشر . وكان إمام هؤلاء جمال الدين الأفغانى .

وإذا أنت أردت أن تدرك الزبدة مما كان يذهب إليه جمال الدين فاعلم أنه كان يذهب إلى أن لدول الإسلام تاريخا عظيما ، وأن فى الدين الإسلامى نفسه عناصر النشأة والنهضة، وهو كان يدعو إلى وحدة إسلامية تضم فى أعطافها كل بلاد الشرق الإسلامى من الهند إلى مراكش . وفى هـذه الوحدة الإسلامية يجب أن تزول حزازات النفوس وعداوتها، ويجب أن يكون الدين

مبدأ عاما يستنير به الهندى والأفغانى والمصرى على السواء . وكان يرى أن أوروبا قد تحيفت هذا الدين ، وتجنت على أهله بقوة السيف ، وأنه لا يستطاع مقاومة الاعتداء من جهة الغرب إلا إذا استعاد الإسلام خلقه الأول .

أما الخلق الأسمى الذى رآه جمال الدين فى الإسلام فقد كان والحرية سواء . كان يدعو إلى الحرية فى كل مظهر من مظاهرها . وكان أساس الحرية عنده أن يتخلص أهل الشرق من عوامل الاستبداد التى تحول بينهم و بين التقدم. لذلك جهر بعدائه لكل نوع من أنواع السلطة . ضاق باستبداد السلطان العثمانى وخلف تركيا وجاء مصر يحاول أن يتمتع ببعض الحرية .

مثل هذه المبادئ كان يذيعها جمال الدين وكانت تسرى سريان الكهرباء فى ظلمة الليل البهيم . وكان شيخ معمّم يجلس فى الصفوف الأولى هو الذى يتلقى دروس الحكيم الأفغانى فيصوغها فى لسان عربى مبين . أما ذلك الشيخ فقد كان متصوفا . وكانت نظراته المتصوفة قد انتهت به إلى كثير من الغموض والإبهام . لكنه وقد عرف جمال الدين وتلقى عنه مثل هذه التعاليم استطاع أن يحدد تفكيره رويدا رويدا، واستطاع أن ينظر إلى مبادئ الإسلام فى هذا النور الذى أضفاه جمال الدين . وليس ذلك الشيخ المعمم إلا الشيخ محمد عبده .

كان ذلك الحكيم يجلس إلى الناشئة المصرية فتهوى كلماته فى قلوب

مشوقة كاد اليأس يحطمها . وكان الشيخ المعم يأخذ كلمات الحكيم فيصوغها كلاما عربيا فصيحا ينشره هنا وهناك فإذا المصريون تدبّ فى نفوسهم الحياة بعد موات ، وإذا النهضة تؤتى أكلها فتقوم فئة فينا تنشر الدين على أصوله وتزكينا فى فهم أمور دنيانا وتبصرنا بما يجب علينا نحو « الوطن » وتبث فينا حب الحرية والنضال فى سبيلها .

وقد ظل الأستاذ الإمام ينقد ما آل إليه الدين فى أيامه ويردّ الناس إلى أصوله الأولى حتى خلّص الدين من الشوائب التى ابتُلى بها . ظن الناس أن الشريعة الإسلامية جامدة لكنه فتّح أبوابا للاجتهاد وما زال يدلى بالرأى فى كل مسألة من المسائل حتى وفّق بين الإسلام و بين أصول الحضارة الحديثة فلم يحن حينهُ حتى كان المسلمون قد استقروا على قيم أخرى من حيث كسب الرزق والمرأة والزواج والقوة والشورى وغير ذلك . نفس هذه المشاكل هى التى واجهها المسلمون فى أقصى الأرض ، وهى التى عالجها بعض قادة المسلمين فى الهند كما عالجها الأستاذ الإمام فى مصر .

وكان فى القاهرة شاب آخر بل قل شعلة من الذكاء والعبقرية والحماسة: شاب نشأ فى منزل أب من أوساط المصريين فتمثل الوطنية فى حياته وعاش لوطنه ومات فى سبيل الوطن . إذا ذُكرت الوطنية نفسها لم تجد له مثيلا فى الأمم الأخرى إلا قليلا . ذلك هو مصطفى : مصطفى كامل .

كان مصطفى روحا تكاد تتجرد لإدراك المثل الأعلى . شغف فى حياته بثلاثة أحرف كان حسبه أن يعيش من أجلها وحسبه أن يموت فى سبيلها . وقد كانت « مصر » دائما هى الرؤيا التى تطالعه وهو صاح فى وضح النهار ؛ وكانت « مصر » أيضا هى الحلم الذى يلازمه وهو نائم فى غسق الليل . وكان يرى أن فى مصر قوة يستطيع أن يتغلب بها على المحتلين الذين ألقت بهم إليها صروف السياسة . وكان يدافع عن حق مصر سياسيا لأنه من رجال السياسة ، وقانونيا لأنه من رجال القانون . وحاول أن يصبغ المسألة المصرية بصبغة دولية حتى يتذرع بذرائع القانون الدولى . لذلك جنح إلى التمسك بأهداب الخلافة القائمة حتى يتخذ من كل ذلك حجة على احتلال غير مشروع . ولذلك كان يرى أن تفيد مصر من الاختلاف بين إنجلترة وفرنسا ، وحاول ذلك حتى اتفقت إنجلترة وفرنسا فى سنة ١٩٠٤ . على أنه كان يرى فى الوطنية شيئا أسمى مما يقتضيه القانون والسياسة ، لأنه رأى فيها الإصلاح الوطنى ، ودعا إلى نشر التعليم ، وكان أعظم خطباء عصره وأغزرهم مادة وأكثرهم كتابة .

هؤلاء ثلاثة من زعماء الفكر الذين عاشوا فى عصر قاسم أمين ولعلك قد رأيت فيهم أمثلة من ألوان الوطنية التى شاعت فى ذلك العصر . بل لعلك تستطيع أن ترى مبدأ المدارس الفكرية التى قامت فى مصر فى الربع الأخير

من القرن التاسع عشر والسنين الأولى من القرن العشرين . وقد كان لابد لزعماء مثل هؤلاء أن يصطدموا بقوات الغرب المعتدية ، فكان فى هـذا الاصطدام نفسه الخير كل الخير لأنه نبّه الأذهان وهزّ المشاعر . والغريب أن يلتقى جمال الدين ورينان فى باريس ، وأن يتكلم رينان عن الإسلام كما عرفه فيرد عليه جمال الدين مفصّلا مبادئ الإسلام كما ينبغى أن تُعرف . والغريب كذلك أن يكتب هانوتو عن الإسلام فيرد عليه محمد عبده، وأن تكون خطب مصطفى كامل جميعا ردا على من ذهب إلى تأخر المصريين من دعاة الاستعمار والمستعمرين . والغريب بعد ذلك أن يظل قاسم أمين ساكنا حتى يحرك مشاعره جميعا كتاب كتبه أحد المستعمرين من كُتاب فرنسا وهو دوق داركور .

***

كان هناك إذن كفاح بين كتّاب من أهل الغرب وآخرين من أهل الشرق . وقد لحظ قاسم أمين هذا الكفاح الخطير وتأثر بكل هذه المذاهب السياسية والاجتماعية التى تقلب بينها واستجاب للآثار التى تلقاها من الوسط المصرى الذى عاش فيه قبل أن يرحل إلى أوروبا ، وعاش فيه بعد أن عاد من أوروبا ، فإذا أنت قرأت كل الذى كتب ـ وقد كتب القليل مما كان يجول بخاطره ـ راعك منه أنه بحث فى الدين بنفس الأسلوب الذى كان

يبحث به رجل مثل جمال الدين ، وراعك منه أيضاً أنه بحث فى عللنا الاجتماعية بمثل الطريقة التى بحث فيها محمد عبده . ثم إذا أنت قدرته كوطنى رأيت أنه أحد الأفراد الذين نشأوا فى بيئة مصطفى كامل ، وأن وطنيته نفسها كانت هى الدافع الأول والأخير من دوافع الإصلاح .

وكأنما قاسم أمين ثمرة من ثمرات عصره وكأنما قد تأثر بوسطه كما أثر فيه . تأثر بوسطه المصرى لأنه ذهب مع جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده فى شأن إصلاح الدين ، وتأثر بوسطه المصرى حين دعا إلى الإصلاح حتى تصمد مصر لقوات الغرب المعتدية ، وتأثر بوسطه المصرى حين دعا إلى نوع أصيل من الوطنية المصلحة . وهو قد كان يعلم من أمر المذاهب الأوروبية المعتدية ما نعلم وكان يتتبع نشأة « المذهب الامبراطورى » والرأسمالية الغربية بدقة الدارس المحّص . بل لقد كان يعلم أن الدول قد تربصت بمصر الدوائر وأن مصر إذا أرادت أن تنجو مما كان يتهددها من الخطر كان عليها أن تتخذ كل ما يمكنها من ذرائع القوة . ولنبحث بعض الفقرات التى يتحدث فيها عن كل ذلك فهو يقول فى أول فصل « المرأة والأمة » من كتاب « تحرير المرأة » :

« كل من تعلّم من المصريين وساعده حسن الحظ على أن يتعرف أحوال أمته وحاجاتها ويحيط بها ، يعلم أن الأمة المصرية دخلت اليوم فى دور مهم ، بل فى أهم دور من تاريخها » .

« إنى لا أجد فى ماضيها عصراً انتشرت فيه المعارف وظهر فيه الشعور بالروابط الوطنية ، وانبث الأمن والنظام فى أنحاء البلاد ، وتهيّأت الأسباب للتقدم مثل العصر الذى نعيش فيه الآن . ولكنها من جهة أخرى لم يمر عليها زمن صارت فيه حياتها معرضة للخطر مثل ما هى فى هذا الزمن . فإن تمدن الأمم الغربية يتقدم بسرعة البخار والكهرباء حتى فاض من منبعه إلى جميع أنحاء المسكونة فلا يكاد يوجد منها شبر إلا وطئه بقدمه . وكلما دخل فى مكان استولى على منابع الثروة فيه من زراعة وصناعة وتجارة ، ولم يَدَعْ وسيلة من الوسائل إلا استعملها فيما يعود عليه بالمنفعة وإن أضرّ بجميع من حوله من سكان البقاع الأصليين . فإنه إنما يسعى الى السعادة فى هذه الحياة الدنيا يطلبها أنّى وجدها وبأى طريقة يرى النجاح فيها . وهو فى الغالب يستعمل قوة عقله فإذا دعت الحال إلى العنف واستعمال القوة لجأ إليها . فهو لا يطلب الفخار والمجد فيما يمتلك أو يستعمر ، لأنه يجد ذلك متوفراً له فى أعماله العقلية واختراعاته العلمية . وإنما الذى يحمل الانجليزى على أن يسكن الهند ، والفرنساوى الجزائر ، والروسى الصين ، والألمانى زنجبار هو حب المنفعة والرغبة فى تحصيل الثروة من بلاد تحتوى على كنوز لا يعرف أهلها قيمتها وطرق الانتفاع بها » .

ثم هو يشرح بعد ذلك الوسائل التى تتخذها الأمم الأوروبية عند التدخل

فى شؤون الأمم الشرقية المستضعفة ؛ وهو يذكر أن الأمم من الجانبين فى كفاح دائم ، وأن النصر سوف يكون للأمم الأكثر مالاً وعلماً وعرفاناً . وهذا عنده « ما سماه داروين قانون التزاحم فى الحياة : فطرة الله التى فطر عليها جميع الأنواع وأودعها فيها لتُعِدّها إلى الرقى فى درجات الكمال . فما ضعف منها عند التزاحم عن مغالبة منازعه اضمحل ونبذه الوجود إلى خفاء العدم ؛ وما قوى عند التغالب أظفره الله بالنصر المبين ، فيرجع من ساحات هذا القتال الدائم مبرهناً بظفره على أنه أفضل بنى نوعه ، وأكرمهم ؛ فيعيش ويبقى ويتناسل وينمو ويظهر فيه كمال نوعه وتخلد به آثاره . »

ثم هو بعد أن يصف هذا الكفاح ينثنى إلى موقف مصر من كل ذلك ومبلغ ما ينبغى أن تتهيأ له من ملاقاة العلم بالعلم ، والخلق بالخلق ، والقوة بالقوة . وهو يقول فى ذلك : « فلا سبيل للنجاة من الاضمحلال والفناء إلا طريقا واحدة لا مندوحة عنها . وهى أن تستعد الأمة لهذا القتال وتأخذ له أهبتها وتستجمع من القوة ما يساوى القوة التى تهاجمها من أى نوع كان خصوصاً تلك القوة المعنوية وهى قوة العقل والعلم التى هى أساس كل قوة سواها » .

***

ألسنا نرى فى هذه الفقرات المتصلة التى نقلت إليك من « تحرير المرأة » كيف أن قاسم أمين قد عرف أساليب السياسة الأوروبية . لقد عرف أية

قوة كانت تربض وراء أوربا ، وأية قوة كانت تريد أن تفتك بمصر وغيرها من الأمم المستضعفة ؛ ثم إنه كان أحد المصريين والشرقيين الذين آمنوا بأنه لا منجاة لمصر ولا للشرق من اعتداء أوروبا إلا إذا استعان المصريون والشرقيون بقوة معنوية يتخذونها من العلم والعقل . لقد كان فى ذلك واحداً من رجال عصره . كان واحداً من هذه الحلقه الطيبة التى ضمّت جمال الدين والأستاذ الإمام وفتحى زغلول وسعد زغلول ومصطفى كامل .

(ب) آثار البيئـــــة الفرنسية

و إذا كنا قد بحثنا آثار البيئة المصرية فى قاسم أمين فجدير بنا أن نبحث بيئته الأخرى التى عاش فيها فى فرنسا . بل جدير بنا أن نبحث بيئته الأدبية التى عاش فيهـا بعد أن رجع من فرنسا . وقد ذهب إلى مونبلييه فى صيف سنة ١٨٨١ ورجع فى صيف سـنة ١٨٨٥ فـكأنما قد امتد مقامه فى فرنسا أربعة أعوام كان فى خلالها دائب الدراسة والقراءة . والباحث فى كتبه يرى أنه قرأ كثيرا من الـكتب الفرنسية : قرأ كتبا لروسو ولامارتين وڤولتير وفنلون وچول سيمون ، وقرأ لغيرهم من القدامى والمحدثين . وكذلك كوّن له وسطا ثقافيا خاصا جال فيه . ولـكل مفكر مثل هذا الوسط الذى تـكوّنه قراءاته . لـكل مفكر محيط أدبى تخلقه له الأفكار التى تنثال عليه من كل جانب والتى لم يزل يزيدها وينميها .

وفى الوقت الذى كان بعض المفكرين الفرنسيين يذهبون إلى ما ذهبوا إليه من تسويغ الاستغلال المادى ، ويتطاولون بما تطاولوا به فى شأن الشرق

والشرقيين ، كانت فى فرنسا نفسها أفكار أخرى عن الحرية ، وعن حقوق الأفراد ، وحقوق الطبقة العاملة ، وحقوق النساء ، وعن فكرة التقدم . نعم ! كان بعض الكتاب الفرنسيين كما ذكرنا يتجنون على أهل الشرق ويختلقون المعاذير للسياسة التى تسير عليها حكوماتهم ؛ ولكن الجو الأوروبى لمن عاش فى أوروبا كان جو الحرية الأصيلة . وأول ما تأثر به قاسم أمين إنما هو الحرية التى لقيها فى فرنسا وشهد آثارها فى السنوات الأربع التى عاشها هناك .

وأحسبنى لست فى حاجة إلى أن أردّد ما كسبته فرنسا خلال القرن التاسع عشر من حقوق سياسية للفرد . فقد بدأت هذه الحقوق السياسية تظهر فى الوجود عند الثورة الكبرى ، وكان إعلان حقوق الإنسان إعلانا للثورة نفسها . وكانت الحرية أصلا من الأصول التى شملها إعلان حقوق الإنسان : حرية القول والفعل والعقيدة . وكانت التجارب السياسية فى فرنسا ترمى دائما إلى أن تلائم بين نظام الحكومة وبين الاحتفاظ بهذه الحريات . بل كان التفكير السياسى فى إنجلترة يرمى إلى مثل ذلك . وكان قد استقر رأى المفكرين والفلاسفة على أن لكل فرد شخصية خاصة يجب أن يحتفظ بها ، وأن لكل فرد أن يُحَكِّم عقله ونفسه فيما يلقاه من النظم والمشاكل . وهذه الفردية التى شاعت فى فرنسا وإنجلترة وأمريكا كانت

أساس الحرية فى مظاهرها العديدة وهى هى التى كان يحسها كل من عاش فى فرنسا فى تلك الحقبة لأن الحرية كانت نفحة من نفحات الحياة .

« الحرية الحقيقية تحتمل إبداء كل رأى ، ونشر كل مذهب ، وترويج كل فكر .

« فى البلاد الحرة قد يجاهر الإنسان بأن لا وطن له ، ويكفر بالله ورسله ويطعن فى شرائع قومه وآدابهم وعاداتهم ، ويهزأ بالمبادئ التى تقوم عليها حياتهم العائلية والاجتماعية ؛ يقول ويكتب ما شاء فى ذلك ولا يفكر أحد ولو كان من ألد خصومه فى الرأى أن ينقص شيئاً من احترامه لشخصه متى كان قوله صادراً عن نية حسنة واعتقاد صحيح . كم من الزمن يمر على مصر قبل أن تبلغ هذه الدرجة من الحرية ؟ »

تلك كلمات كتبها قاسم أمين يصف بها مظاهر الحرية التى عاش فيها وهو مقيم بفرنسا ، ولا بد أن نذكر ذلك حين نتحدث عنه كمصلح لأن الحرية الفكرية هى التى أنارت له السبيل نحو إصلاحه الاجتماعى . لكن هناك وجهاً آخر للحرية التى شاعت فى أوروبا فى أخريات القرن التاسع عشر . فقد بدأت هذه الحرية فى الانتشار رويداً رويداً حتى ضمت بين أعطافها طبقات من الناس لم يعترف بحقوقهم من قبل . نعم ! كانت الثورة الفرنسية الكبرى ثورة سياسية انتهت باعتراف القانون والسياسة بما للفرد من حقوق

لكنه كان قد بقى أن يُعترف بهذه الحقوق اجتماعيًا واقتصاديًا . كانت الديموقراطية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ديموقراطية سياسية فحسب ، لكنّ المفكرين فى النصف الثانى من هذا القرن كانوا يدعون إلى ديموقراطية اجتماعية واقتصادية . وكانت محاولات الاشتراكيين والشيوعيين والفوضويين كلها ترمى إلى إدراك المساواة الاجتماعية والاقتصادية إلى جانب المساواة السياسية التى اعترف بها القانون . وفى سنة ١٨٢١ دافع سان سيمون عن حقوق العمال . وفى سنة ١٨٤٠ كتب برودون كتابه « ماهى المِلْكية ؟ هى السرقة » . وفى سنة ١٨٦٧ كتب كارل ماركس كتابه « رأس المال » . وهذه السلسلة من رجال الثورة الاشتراكية هى التى كشفت الطبقة العاملة ، وحاولت أن تخلّص أفرادها من بين براثن الرأسمالية الخبيثه . وانتهت أيضاً بأن أُلغى الرق ، وأصبح العبيد ينعمون بما ينعم به الأحرار .

كُشفت الطبقة العاملة خلال القرن التاسع عشر كما كُشفت حقوق العبيد . وقد كُشفت كذلك حقوق المرأة . فقد كانت هناك حركة نسائية فى فرنسا ، وكانت هناك حركة نسائية أخرى فى انجلترة وفى أمريكا ؛ وكانت ترمى هذه الحركات إلى أن تُحَرَّر المرأة من ربقة الاستعباد الاقتصادى فى المصانع و بين الآلات ؛ بل كان بعضها يرمى إلى منح المرأة حقها الانتخابى . وتكوّنت من النساء اتحادات وجماعات تدافع عن حقوق المرأة وتنشر الدعوة

فى كل مكان . وأفلحت الحركة النسائية فى أمريكا حتى اشترك النساء فى ولاية يومنج فى القيام بالوظائف العامة . ومشت الحركة النسائية قُدُماً حتى بلغت نتائج تبشر بمستقبل سعيد فى فرنسا وانجلترة .

لابد أن يكون قد تأثر قاسم بهذه الحياة الحرة التى يدافع فيها كتّاب ومفكرون عن طبقات العمال والنساء . ولا بد أنه قد تغذّى بهذه الأفكار والآراء قبل أن يعود الى مصر . لكن التأثر نفسه كان بطيئاً خفيّا . لقد تلقّى هذه الآثار لكنها اختفت فى حياته الدراسية وظهرت بوادرها بعد ذلك فى حياته العامة . وما زالت هذه الآثار تعمل فى عقله الباطن ونفسه غير الواعية حتى ظهرت فى إبانها حينما تحدث عن المرأة ، عند ذلك فقط ظهر فى صورة المصلحين الذين شهد آثارهم فى فرنسا ، وفى صورة المفكرين الذين درسهم وبحث كتاباتهم ومذاهبهم .

وحينما بحث حياة الجماعة المصرية وضع أصبعه على موطن الداء لأنه أرجع سيئات هذه الجماعة إلى ظلم الولاة وضياع حقوق الأفراد . لقد كان من البدائه المعلومة فى فرنسا أن الحكومة الظالمة المستبدة تخلق أفراداً ناقصين علماً وخلقاً ، وكان من بدائه القانون أن العدل والحرية من شأنهما أن يسمُوَا بالخلق العام . وحينما بحث قاسم أمين فى تاريخ مصر والإسلام اقتحم هذه الحرية ، وعلم أن الاستبداد هو الذى نزل بالرجل والمرأة على السواء إلى حيث الموطن الوضيع فى البيئة المصرية التى عاش فيها .

وهو يقول فى مقدمة « تحرير المرأة » :

«تجردت الجمعيات الإسلامية على اختلاف الأزمان والأماكن من النظامات السياسية التى تحدد حقوق الحاكم والمحكوم ، وتخول للمحكومين مطالبة الحاكم بالوقوف عند الحدود المقررة له بمقتضى الشريعة والنظام، بل أخذت حكومتها الشكل الاستبدادى دائما فكان لسلطانهم وأعوانه سلطة مطلقة . .

« وكان من أثر هذه الحكومات الاستبدادية أن الرجل فى قوته أخذ يحتقر المرأة فى ضعفها . وقد يكون من أسباب ذلك أن أول أثر يظهر فى الأمة المحكومة بالاستبداد هو فساد الأخلاق . »

* * *

لكنّ كل قول عن التفكير الفرنسى فهو ناقص إذا نحن لم نعالج « فكرة التقدم » التى كانت تنشأ بين بعض الكتاب والفلاسفة فى أخريات القرن التاسع عشر ، كما نشأت بين كتاب وفلاسفة آخرين فى فترات كثيرة من تاريخ البشر . ولقد تعلم أن « دارون » كان قد كتب كتابه عن أصل الأنواع فى سنة ١٨٥٩ ، وأنه قد ذهب إلى أن حياة العضويات على ظهر الأرض مرتبطة فى سلسلة تسير من قرن إلى قرن، ومن جيل إلى جيل، وأن كل عضو فهو منحدر من سلالة وهو منحدر إلى سلالة أخرى . وفكرة التطور

هـذه أخذت العالم المتحضر أخذاً شديداً فاعتنقها العلماء والأدباء فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر . وما زال يزيدها كل عالم وضوحاً حتى أصبحت هى المبدأ والمعاد لكل لون من ألوان المعرفة . تناول الأدباء والمفكرون فكرة التطور فانتفعوا بها فى الأدب ، لأنهم عالجوا فروع الأدب كما كانت تُعالج العضويات ، وانتفعوا بها كذلك فى دراسة التاريخ وعلم تقويم البلدان وكذلك أثّرت فى العقيدة الدينية وفى الاجتماع والحياة العامة .

ولا تحسبنّ أن فكرة دارون هـذه طغت على الدين، فقد انتهى القرن التاسع عشر وأشرق القرن العشرون فإذا جمهرة الكتاب والمفكرين والعلماء يخلقون ديناً جديداً من العلم نفسه . وسُمّى هذا الدين الجديد « فكرة التقدم» فى أحيان ، وسمى فى أحيان أخرى « التطور الابتداعى » . ويتلخص فى أن الحياة الإنسانية على ظهر الأرض لها غرض أسمى تندفع إليه ، وأن كل شؤون الحياة يجب أن تسير فى طريق يحقق ذلك الغرض الأسمى . واستكشف الفلاسفة أن للإنسان إرادة فى حياته الدنيا ، وأن كل شؤون الحياة قد بدأت ناقصة لكنها اكتملت بهذه الإرادة التى رُكّبت فى طبيعة الإنسان ؛ فإذا سلمت هذه الإرادة عند جمهرة من الناس فلا بد أن يتطور العالم إلى الدرجة المرجوّة من الكمال . وكذلك أراد دارون أن يبيّن للناس فى كتاباته كيف تتطور السلالة الإنسانية ؛ لكن فلاسفة ـ جاء فى أثرهم برجسون ـ أرادوا

أن يبيّنوا لماذا تتطور السلالة الإنسانية . وما دام الفلاسفة قد كشفوا أن فى العلم نفسه ديناً جديداً يدعو إلى الخلود ويدفع الناس الى أن تكون لهم إرادة وينصب لهم غرضاً سامياً يعملون له فقد حُلّت المشاكل بين العلم وبين الدين وانتهى العلم والدين كلاهما إلى طريق وسط ، وعادت فكرة الروح ثانية إلى الوجود ، وتزايلت مبادئ العلم الجامدة .

واضطرب شرقى مسلم مثل قاسم أمين فى هذا الوسط وقرأ لمن تحدث عن فكرة التطور والتقدم فاعتنقها مبدأ هاما من مبادئ الإصلاح . ولعله لم يؤثر فى حياته العامة مثل ما أثّر هذا المذهب .

ولم تكن عقيدته العليا إلا فكرة التطور أو التقدم أو استكمال النقص أو تكوين الإرادة العامة .

نقول كانت عقيدته العليا هى « فكرة التقدم » . ولم تكن الفكرة نفسها غريبة عن الوسط الذى عاش فيه . ولأمرٍ ما ترجم فتحى زغلول «سر تطور الأمم» و «سر تقدم الإنجليز السكسونيين» و «روح الاجتماع». ولأمرٍ ما أُشرب قوم من المصريين ما سموه « الكمال » . ولأمر ما يقول محمد عبده « لابد أن ينتهى أمر العالم إلى تآخى العلم والدين على سُنّة القرآن والذكر الحكيم . وليس بينك وبين ما أعدك به إلا الزمان » . ثم لأمر ما ترددت كلمة « الكمال » عشرات المرات فيما كتبه قاسم أمين . أليس كل

هذا دليلا على أن روح العصر فى مصر كانت روحا دفاعة من التفاؤل والرجاء، وعلى أن الجماعة المصرية كانت تنظر إلى المستقبل . وكان ينظر إلى المستقبل قاسم أمين .

لقد كان يؤمن قبل كل شىء بأن العالم يتطور من درجة إلى درجة و بأن الحياة الإنسانية فى تقدم دائم . كان يرى أن النشوء والارتقاء يتناول كل مجتمع على ظهر الأرض وأن لحياة الإنسان غرضا أسمى هو الذى يتقدم نحوه . كان يرى أن الإنسانية تتقدم قليلا قليلا نحو حالة من الكمال . وأنها كلما مضت بها سنة تقدمت خطوة نحو هذه الحالة الكمالية السامية . والجماعات فى تقدمها من حال إلى حال قد يعتريها وهن أو خمول أو خطل ؛ لكنها لابد أن تتغلب على تلك العقبات . لقد تلقى فى طريقها كثيرا من الصعاب بل ربما مضت فى فترات من التحلل والتدلى لكنها لابد أن تخرج من مثل هذه الفترات قوية رشيدة حتى تبلغ أهداف الحياة العليا . لذلك طالما تحدث عن الأمل وطالما كتب عن المستقبل . وهو يقول فى كتابه « المصريون » .

« أيمكن أن نقول إن الأمة المصرية تحتل نفس المركز المعنوى والسياسى الذى تحتله الأمة الفرنسية ؟ كلا ! إن الأولى تبدأ بينما الأخرى قد وصلت أو قل قد أوشكت على الانتهاء . إننا نؤمن إيمانا ثابتا بتطور الإنسانية الدائم أو بقدرتها على استكمال ما تلقاه من النقائص . ولابد أن يكون هناك حد

يتهى عنده جمود أمة من الأمم أو نكوصها على أعقابها . إنه لمن الصعب أن نقول إن هذه الإنسانية المسكينة قد قضى عليها أن تتقهقر بدلا من أن تسير إلى الأمام بينما يمكن حل المشاكل التى تتصل بمستقبلها بما ينطوى عليه العلم » .

وإذا أنت نظرت إلى الحياة من هذا الوجه رأيتها يسيرة ورأيت مشاكلها تنحل الواحدة بعد الأخرى . وأدركت أن القسوة والظلم والإثم كل هؤلاء ليست هى فى الواقع شرورا لا حلّ لها بل هى أخطاء صادفتها الإنسانية حينما لم ترشد إلى طريق سَوىّ . وليس شأن النبيين والمصلحين فى هذا العالم إلا أن يدعوا الناس إلى أقوم السبل حتى يبلغوا بهم أغراض الحياة من حيث السلام والأمن والدعة والعمل الصالح . لذلك كان الإيمان بفكرة التقدم بضعة من الإيمان بالخلود وكان من اليسير على مسلم أن يؤمن بفكرة التقدم ، وأن يدعو إليها منذ سمع بها فى فرنسا ودافع عنها فى مصر ، ووازن بينها وبين دينه فوجدها فى بعض آيات الذكر الحكيم .

* * *

فكّر قاسم أمين مليا فرأى أن تطور أية جماعة بشرية رهن بتكوين هذه الإرادة العليا التى ذهب إلى ضرورتها فلاسفة التقدم . ورأى فوق ذلك أنه يجب على المصريين أن يدرسوا مساوئهم ومثالبهم حتى يعلموا كيف

يتقدمون . وقد اتخذ له شعارا هذه الآية الكريمة التى رآها تتفق والفلسفة الجديدة : « إنّ اللهَ لا يُغيّر ما بقومٍ حتى يُغيِّرُوا ما بِأَنفُسِهم » .

وعنده أنه ينبغى للكُتّاب « أن يدرسوا زمانهم درسا تاما ، ويقفوا على كيفية ارتباط حالهم بماضيهم وأخلاقهم وعوائدهم ومعتقداتهم وسياستهم ، حتى يتبين لهم ما هم عليه بكيفية لاتقبل الشك . إن هذه الأمور إنما هى العلل التى أنتجت تلك الحالة ، وإن تغييرها لا يكون بالصدفة ، وإنما هو بتغيير يحدث فى تلك العوامل المؤثرة إذ السبب والمسبب دائما متلازمان عقلا وعادة . متى وُجِدَ أحدهما وجد الآخر حتما » .

« وهذا نظام الله سبحانه وتعالى فى العالم كله فليس فى الكون شىء وجد بلا موجد وسبب واضح أو خفى ، معروف الآن أو يكشفه المستقبل » .

وآية « إنّ اللهَ لا يُغيّر ما بقومٍ حتى يُغيِّرُوا ما بِأَنفُسهم » هى أساس لذلك القانون . وبها يظهر للقارئ كيف توافقت شريعتنا مع العلم فى هذه الآية كما تتفق معه دائما لو كان القائمون بشئونها رجالا أكفاء يخدمونها بجدّ ويفهمونها بإصابة إدراك .

« على أن حالة الأمة فى السعادة والشقاء ، أو التقدم أو التأخر ، ليست حالة توجد أو تتغير بحكم الصدفة ، بل إنها نتيجة لازمة لا تتغير إلا إذا تغيّر ما بنفس الأمة » .

« فإن كانت أمة نشيطة متربية متمدنة كان لها الحظ فى الدنيا ، وإن كانت كسولة جاهلة ذات أخلاق رديئة كان لها الشقاء فيها » .

« والحالة الاجتماعية متى عرف كيف وجدت يعرف كيف تزول فهى لا تتغير أبدا إلا بحال آخر ، بمعنى أن إرادة الشخص أو إصدار قانون أو مائة قانون كل ذلك لا يؤثر فيها بشىء محسوس » .

« وعليه فإذا أراد من يهمهم إصلاح أمتنا من رجال الحكومة وأبنائها الذين يفكرون فى الطرق اللازمة لإخراجها من حالها ونقلها إلى حال آخر أن يفعلوا شيئا نافعا ، فعليهم أن يكشفوا لها الستار عن عيوبها جميعها مهما كانت مرة المذاق أو مخجلة وأن يربوها على التجمل بالعوائد الحسنة إن لم يكن التأثير على معاصريهم ، فعلى ذرياتهم من بعدهم » .

أرأيت كيف حاول قاسم أمين أن يوفّق بين عقيدته المركزية وبين إيمانه الدينى ؟ لقد وجد ضالته حين استروح نفحة من آى الذكر الحكيم فأدرك أن وراء الروح الإسلامى دافعا نحو التقدم ، وأن الله سبحانه وتعالى قد أمر عباده أن يغيّروا ما بأنفسهم حتى يصبحوا صالحين . ولا شك أن هذه عقيدة عليا من عقائد الإسلام . ولولاها لما استطاع محمد صلى الله عليه وسلم أن يغيّر من العرب فيجعلهم جميعا أمة واحدة تحت راية القرآن . كان الإسلام فى بعض وجوهه ثورة على التقاليد والعادات والعقائد وكان شعار هذه

الثورة هى تلك الآية الكريمة التى سلفت . وهى هى التى اتخذها قاسم أمين شعارا لفلسفة التقدم وأراد أن يكوّن لها إرادة عامة بين أفراد الأمة حتى ينتقلوا من حال إلى حال .

ثم كان قاسم أمين يضيق ذرعا بمن يتقيد بالتقاليد والعادات مهما ساءت هذه التقاليد وظهر فسادها . وفى الحق لقد كان هذا نتيجة حتمية لمن اعتنق مبدأ التقدم . فالذين يذهبون إلى فكرة التقدم أو « التطور » ، والذين يعملون على إصلاح الجماعة التى هم فيها ، يحاولون دائما أن يتحللوا من العادات الخبيثة التى تحول دون التقدم . يسميهم الناس الذين ألفوا الأوضاع الأولى « مبتدعين » أو « ماّفين » لكنهم فى الواقع مصلحون يرون ما لا يرى غيرهم وهم بعد ذلك أعداء العادة يحاولون أن يحطموها كما حطّم محمد الأصنام وكما حطمت الرسل من قبله عقائد القرون الأولى .

يقول قاسم أمين فى مقدمة « تحرير المرأة » .

« سيقول قوم إن ما أنشره اليوم بدعة . فأقول نعم أتيت ببدعة ولكنها ليست فى الإسلام ، بل فى العوائد وطرق المعاملة التى يحمد طلب الكمال فيها .

« لِمَ يعتقد المسلم أن عوائده لا تتغير ولا تتبدل وأنه يلزمه أن يحافظ عليها إلى الأبد ، ولِمَ يجرى هذا الاعتقاد فى عمله مع أنه هو وعقائده جزء من الكون الواقع تحت حكم التغيير والتبديل فى كل آن ؟ أيقدر المسلم على

مخالفة سُنة الله فى خلقه إذ جعل التغيير شرط الحياة والتقدم ، والوقفة والجمود مقترنين بالموت والتأخر ؟ » .

ثم ماذا بعد كل هذه الأفكار ؟ لقد كانت آثار التقدم المادى تظهر فى كل ناحية ذهب إليها فى هذا الوسط الفرنسى . حينما وطئ أرض فرنسا هاله ما رأى من آثار العلم . رأى الأبنية المشيدة ورأى آثار البخار ثم رأى الاقتصاد والسياسة والاجتماع قد أصبحت علوما فبهره من ذلك ما بهره . كانت البيئة الأوروبية قد بلغت من التقدم المادى فى القرن التاسع عشر أضعاف ما بلغته فى القرون الثمانية عشر التى تقدمت هذا القرن . وكان الغِنَى وكسب المال ظاهرا فى كل ناحية من نواحى الحياة . وكانت الأرض جميعها قد تفتحت للعلم . فذهب الأوروبيون يجوبون أقطارها يستغلون البر والبحر ، ويستخرجون المعادن ، ويستنبطون الكهرباء .

***

لقد اضطرب شرقى مسلم مثل قاسم أمين فى هذا الوسط وقرأ لمن تحدث عن الحرية وقرأ لمن تحدث عن التقدم فاعتنقهما مبدأين هامين من مبادئ الإصلاح . وإذا كنا قد بسطنا الكلام بعض البسط فى وصف البيئة الاوروبية أو الوسط الفرنسى فما كان ذلك إلا لنستجلى فكرتين هامتين اتخذهما قاسم أمين هما فكرة الحرية وفكرة التقدم . وعلى هاتين الفكرتين

تقوم هـذه الدعوة الرشيدة التى دعا إليها . ولابد لنا أن نذكر مبلغ إيمانه بهاتين الفكرتين حتى نقدره كمصلح اجتماعى . فقد كان إصلاحه الاجتماعى يقوم عليهما .

ثم لقد كانت الفكرتان مرتبطتين كل الارتباط . فكرة الحرية كانت عنده فكرة عامة وفكرة التطور كانت فكرة خاصة . كانت الأولى كما تكون العدسة أما الثانية فقد كانت كما تكون البؤرة من هـذه العدسة . كانت الأولى دعوة شاملة اشترك فيها مع غيره من معاصريه، أما الثانية فقد كانت إيمانا قويا لم يشاركه فيها كثير من معاصريه .

***

ذلك موجز للآثار التى تلقاها قاسم أمين حين مقامه بفرنسا . وهى الآثار التى استجاب لهـا حين نادى بالإصلاحات التى دعا إليها . لقد كانت شخصية موزعة بين خير ما كان فى البيئة المصرية و بين خير ما كان فى البيئة الفرنسية . وقد حاول أن يلائم بين البيئتين . وقد كان مسلما قوى الإيمان ومثقفا قوى الثقافة . ثم إنه كان مصرى الوجدان لكنه كان أورو بى التفكير . ولعل النقاش الذى دار بينه و بين الدوق دار كور أول ما أثار إيمانه كمسلم ، كما أنه كان أول ما أثار تفكيره كرجل مثقف . كان من بعض وجوهه نقاشا بين الوجدان المصرى والتفكير الأورو بى .

بين قاسم أمين و دُوق دَاركُور

كان « الدوق داركور » من بين الفرنسيين الذين اعتادوا أن يزوروا مصر فى الشتاء ليتقلبوا بين أنحائها . زارها ثلاث مرات كما يزورها غيره من السائحين العابرين . فكتب كتابا فى سنة ١٨٩٣ يجمل فيه آراءه عن مصر والمصريين[١] . وكانت كتاباته سلسلة من المطاعن القاسية . فقد تناولت الجماعة المصرية من أحطّ نواحيها . وكانت صادرة عن تجربة قصيرة . ولم يكن باعثها الإخلاص ولا المروءة ولا حسن النية .

وما لبث قاسم أمين أن كتب كتابا آخر يردّ به على هذه المطاعن[٢] . ألّفه بالفرنسية فى الشهور الأخيرة من سنة ١٨٩٣ ، وأخرجه للناس فى سنة ١٨٩٤ . وحاول قاسم أمين فى كتابه هذا أن يرد على كل تجريح أتى به الدوق داركور . وكأنما كان هذا النقاش صورة من الكفاح بين الشرق

---

(١) L' Egypte et les Eyyptiens تأليف Le Duc d' Harcourt

(٢) Les Egyptiens-Reponse à M. le Duc d' Harcourt تأليف قاسم أمين

و بين الغرب ، وهو شبيه لما كان بين هانوتو والأستاذ الإمام. والكتابان معاً دراسة قوية لفترة من تاريخ حياتنا العامة ، لأن الدوق الفرنسى حاول بكل ما أوتى من قوة وضغن أن يصف مصر ، وأن ينقد نظم الحكم والأخلاق والعادات التى كانت عليها الجماعة المسلمة . كما أن المستشار المصرى قد حاول أن يجلو هذا المجتمع فى صورته التى رآها . الدوق الفرنسى كان متشبعا بجملة من الآراء التى اتخذها بعض المفكرين الغربيين فى القرن التاسع عشر ، فحاول أن يطبّقها على المصريين . والمستشار المصرى كان مؤمنا برقى العنصر المصرى ، وسمّو الدين الإسلامى فى أصوله الأولى ، فحاول أن يدافع عن أهل وطنه ودينه وأن يردّ على المثالب التى اختلقها الدوق الفرنسى فى أحيان ، وصوّرها بحق فى أحيان أخرى .

نقول إن الدوق دار كور لم يكتب كتابه عن مصر والمصريين لداعٍ من الإخلاص ولا المروءة ولا حسن النية ، لأن نقده كان قاسيا ، بحيث لم يقف مرة واحدة ليعطف على المصريين ، ولم يقل كلمةواحدة تبعث على حسن الظن بنياته . قام كثير من المصلحين فى أخريات القرن التاسع عشر ينقدون النظم القائمة يومذاك فى مصر . وكانت محاورات جمال الدين الأفغانى ، وكتابات الأستاذ الإمام آيات من السخط ، لكنّ آراءهما كانت سائغة ، لأنهما لم يصدرا فيما كتباه أو نشراه عن ازدراء للعنصر المصرى ، ولا عن احتقار

للحضارة الإسلامية ، بل على العكس من ذلك ، لقد كانا من الساخطين لأنهما حاولا أن يدفعا بالمصريين والشرقيين فى سبيل التقدم . ولكن الذى يميز كتاب الدوق داركور هو هذه اللفحة من التعصب الأعمى التى امتاز بها بعض كُتاب الغرب فى ذلك العهد ، فهو لم يكتب كتابه طمعا فى الإصلاح ولا دعوة إلى التقدم ، وإنما كتبه ليبصر قومه أنه كان فى مصر مجال للسلب والنهب ، وأنهم أخطأوا السبيل حينما تركوا الأمر جميعا بين يدى إنجلترة .

فلنبحث كتاب « مصر والمصريون » بحثاً هادئاً ، ولنجمل لك ما فيه من الآراء حتى نرى إلى أى حد كان الدوق داركور على حق فيما ذهب إليه من نقد الجماعة المصرية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، والكتاب صورة ـ قد تكون غير عادلة ـ لنواحٍ من الحياة المصرية فى نهاية ذلك القرن ولا شك أن قوماً مثلنا يفيدون كثيراً من ذكرى هذه الدراسات ، بل لا بد أننا واجدون نقطاً تثير البحث فى كتاب مثل هذا كتب عن مصر خاصة .

* * *

أول ما لحظه الدوق الفرنسى أن مصر لا تتمتع بخلق قومى واضح ، وأن فى المصريين ضعفاً قومياً عامًّا . أما المجد الفرعونى الغابر فقد عفّت آثاره ، وأما الأمة المصرية نفسها فقد عانت من الظلم ما نزل بها الى المستوى الأدنى من الحياة . وقد تدهور الخلق القومى منذ نهاية العصر القديم لما عانت البلاد

من الحكم الأجنبى ، فقد كانت فى تاريخها الوسيط والحديث مسرحاً للغاصب الأجنبى . أما أبناؤها فقد كانوا من ضحايا القوة الغشوم . حكمهم المماليك خمسة قرون فكان لحكومتهم أثر سيئ ، لأنها باعدت بين أهل البلد و بين مناصب الحكم ، ولأنها عزلت الحكام عن المحكومين فأصبحت الفُرقة بين الحاكم والمحكوم تقليداً سرى فى نظم الحكم حتى أيام إسماعيل . أما الظلم الذى يعانيه الفلاحون فهو بليغ لأنهم يُسَخَّرون من غير أجر ، و يعيشون فى ظروف أتعس من ظروف العبودية الأولى . فليس الظلم هنا شيئاً خياليًا ، وإنما هو مظهر مادى يدل على ما وصل إليه الفلاح المصرى من الضنك والفقر والفاقة ، ويدل كذلك على ما ورثه من القرون الأولى من الذل والهوان . كل ذلك فتّ فى حياة مصر فجعلها جسما ضعيفاً لا تتردد فيه روح القومية .

وعنده أن أشد ما أوهن الروح القومية عند المصريين إنما هو تهاونهم فى التربية العسكرية ، فالمصريون ينقصهم النشاط العسكرى العنيف ، وليس لهم عهد طويل بنظام الجندية . وحين أهملوا تربيتهم العسكرية فقدوا روح المغامرة واكتفوا بالخلق الزراعى الذى وثّق بينهم و بين الأرض التى يزرعون فأصبحوا وهم لا يفكرون فى شىء ما خلا الأرض ، وضاقت آمالهم لأنها اقتصرت على ذلك الوادى الضيق الذى يمتد على ضفتى النيل . أما الروح الحربى الذى بدأه محمد على فى تكوين الجيش فقد كان موقوتا بالانتصارات

التى حازها ، فقد وهن الجيش بعد محمد على فأصبح هزيلا ، وكان انتصار الإنجليز عليه محققاً ميسوراً .

وانتقل الدوق بعد التحدث عن القومية فى مصر إلى نقد الطبقات الاجتماعية فيها ؛ وهو ارستقراطى لا تستقيم الجماعة عنده إلا إذا كان فيها طبقات اجتماعية تختلف كل واحدة عن الأخرى . وهو يرى أن النظام الأوروبى فى عصره يكاد يكون كاملا لأن كل طبقة من طبقات المجتمع تؤدى واجبات خاصة ، وأن الذى يحدث الفروق بين كل طبقة وطبقة إنما هو اثنتان : الوراثة والتربية . فكل فرد من أفراد الطبقة العليا يورّث أولاده وحفدته ما بلغ من مجد وما أصاب من مال . أما فى مصر فإن الدوق داركور لم يجد مثيلا للطبقات فى المجتمع الأوروبى : لأن صلات الأسرة المصرية ضعيفة واهنة : أضعفها الطلاق وتعدد الزوجات والرق ، ولأن توغل الأجانب فى الحكم لم يسمح للمصريين أن يكوّنوا منهم طبقة ارستقراطية حاكمة ، ولأن المرأة قد أهملت التمتع بسلطتها على ما تملك فأصبحت متاعا يملكه الرجل ، ولأن الأرض جميعا كانت ملكا للوالى حتى سنة ١٨٧١ ، ولم توزع حين وزعت بقسطاس عادل فقد أعطيت لمن استطاع أن يدفع مقدما ضرائب ست سنوات . كل ذلك لم يسمح للطبقات فى مصر أن تتكون ، ولا أن تدرك كل منها ما هى مطالبة به من الواجبات والخدمات فى الحياة العامة .

فإذا كانت أوروبا قد عانت من وجود اختلاف بيّن بين طبقاتها فقد عانت مصر من أنها لم تعرف نظام الطبقات على الإطلاق .

***

ويصل الدوق داركور بعد ذلك إلى الفصل السادس من كتابه فيعالج موضوعا هاما لعله هو الذى أثار قاسم أمين ، بل لعله هو الذى دفع قاسم أمين إلى الكتابة عن المرأة .

لقد لاحظ فى جولاته أن تحجب النساء فى مصر شائع مطلق عند الأغنياء ، وأن المنازل المصرية نفسها قد بنيت لتحجبهن . ففن العمارة فى مصر قد مضى فى أطوار متعاقبة . لكنه فى كل طور منها كان متأثرا بفكرة الحريم : هذه المداخل الملتوية ، وتلك المشربيات التى تطل على حوش داخلى ، وذلك التخطيط الذى يفصل قسم الحريم عن قسم الرجال ، كل ذلك يدُل على أن الحجاب فى مصر كان بالغ التأثير ، وكل ذلك يدعو إلى التفكير فى أسباب الحجاب .

وقد رأى السبب الاجتماعى للحجاب فى حالة الخوف والذعر التى نشرها النظام الحكومى المستبد فى مصر . ذلك بأن الجماعة المصرية كانت تقوم فى نظره على فكرة واحدة هى الخوف : خوف المظلوم من الظالم ، وخوف المحكوم من الحاكم ، وخوف الضعيف من القوى . وكان الرجل يخفى كل

ما يملك لأنه مستضعَف تهدده السلطة المادية الجائرة . وكانت المرأة من أنواع المتاع الذى يخفيه الرجل . وقد قُضى على المرأة بالحجاب خوف الحاكم المستبد الظالم . وذلك الذى كان يخفى المال فى أغوار الأرض كان يخفى المرأة فى أعماق البيت . فهو فى كلا الحالين يخشى على شطر مما يملك ، وهو يعيش فى حالة من الفزع تهدده القوة الغشوم ؛ والقوة الغشوم كانت تغتصب المال كما تغتصب النساء . إنه يجاهد فى حياته ليبقى ، وهو فى جهاده هذا يحرص على زوجه كما يحرص على الفضة والنضار . ذلك إذن تفسير للحجاب الذى ضربه الرجل على المرأة ، وهو تفسير لا يَمُتّ إلى الدين بأى علاقة من العلاقات .

أما السبب الدينى لحجاب المرأة عند دوق داركور فهو أن الإسلام قد أمر به ؛ ذلك بأن الإسلام فى نظره قد تدخل فى كل العادات الشخصية التى يتبعها المسلمون والمسلمات . فهم مقيدون بأوامر دينهم ونواهيه فيما يقل أو يجل من الأمور . والدين يملى عليهم مايفعلون فى حركتهم وسكونهم ، وفى ملبسهم ومأكلهم . وقد أمرهم بالحجاب ؛ فكان ذلك أساسا من أسسه . وحيثما تحجبت النساء انحطت المرأة المسلمة وأصبحت فى معزل عن الحياة العامة ، وعاشت فى جو تغشاه الخرافات وتتجلى فيه الغرائز الدنيا . بل لقد أصبحت هذه الخرافات وتلك الغرائز من بين الغايات التى يعيش لها المجتمع المصرى ، لأن الأطفال قد نشأوا فى هذا الجو الفاسد الذى تملأه القصص البذيئة والعادات المخنثة . وفى مثل هذه الحياة الاجتماعية القاصرة لا يستطيع الذين

أوتوا شيئا من العلم الحديث أن يفيدوا مما تعلموا . حتى الفتيات اللاتى تعلمن فى مدارس أوروبية أسأن فهم الحياة فى أوروبا ، فقرأن أسوأ الروايات وأسأن التصرف فيما أوتينه من حرية ضئيلة محدودة .

* * *

ويبدأ دوق داركور كتابه الثانى عن مصر والمصريين بحديث عن تأخر الحركة الفكرية فى مصر ، وهو حين يعرض لهذا الأمر يعود إلى الإسلام ثانية . لكنه يعود فى هذه المرة أشد عنفا وأكثر تجنيا .

والدين عنده هو السبب الأساسى فى هذا التأخر الذى لحظه فى كل بلد إسلامى . وقد ادعى أن الإسلام لايحض على البحث فى العلوم غير الدينية ، لذلك احتقر المسلمون علوم الغرب ، واعتقدوا أن القرآن قد حوى بين دفتيه علوم الأولين والآخرين وأن كل ما عداه باطل . بل هو ينكر على العرب الأولين أن كان لهم مدنية خاصة ، لأن المدنية لا تقوم إلا على أساس علمى ، والعلم عندهم لم يكن يخرج عما أتى به القرآن ، لذلك أمر عمر بإحراق مكتبة الاسكندرية ! ثم إن العرب لم يحاولوا استكشاف علوم الدنيا لأنهم تعصبوا لأصول دينهم وآمنوا بالقضاء والقدر ، لذلك قامت مدنيتهم على قوائم المدنيات العتيقة . فالنسطوريون كانوا هم أئمة الطب فى الرها ، والإغريق هم الذين أدخلوا الرياضة فى ممالك العرب ، والفن البيزنطى هو الذى أوحى إليهم

أصول الفن العربى . وبالجملة فقد كان الشرق مشبعا بآثار المدنيات القديمة حينما غزاه العرب ، فما استولوا عليه حتى ظهرت مخلفات هـذه المدنيات . أما شِبه الجزيرة العربية نفسها فلم تكن صاحبة مدنية خاصة نستطيع أن نسميها « المدنية العربية » .

* * *

تلك بعض الآراء التى ضمنها دوق داركور كتابه عن « مصر والمصريين » وقد أسلفنا أن الدوافع التى دفعته إلى كتابة كل ذلك لم تكن مخلصة ولا شريفة . بل لقد كان يكتب و بصره يشرئب إلى تلك الأسلاب التى أقبلت عليها انجلترة دون فرنسا . ولـكن بعد كل الذى نقلت إليك ، و بعد أن أحسستَ بالضغن الذى يثيره مثل هـذا النقد القاسى ، و بعد أن رأيت أن الدوق داركور جاهل بما فى الإسلام من قوة ، ألا ترى أنه على حق فى كثير مما وصف من آثار الجهل والفاقة ، ثم ألا ترى معى أنه على حق فيما وصف من ظلم يمتد إلى أغوار الحيـاة المصرية نفسها وفيما صور من آثار العبودية ، وفيما نقد من اتجاهات التربية والتعليم والأدب ، وفيما بيّن من هضم حقوق النساء ؟ إنه على حق فى كل ذلك ، لـكنه مخطئ حيث يبدى أسباب هذا الظلم والتأخر ، وحيث يتفلسف فيتحدث عن الدين حديث الواثق المدقق . وفى الحق إنه لم يبحث أصول الدين كما كان ينبغى ، بل لقد قفز إلى أحكام طائشة كان أجدى عليه لو تريث فى إرسالها قليلا .

نعم كان دوق داركور جاهلا بأسس الدين الإسلامى و بتاريخ العرب وبفضل الثقافة العربية فى تاريخ المدنيات العامة ، لكن قيمة كتابه ليست فى ذلك ، وإنما هى فى تصوير الحياة التى رآها والتعبير عن الآثار النفسية التى تلقاها . ولعله كان جاهلاً كذلك بأن المصريين أنفسهم كانوا قد أحسوا بالنقائص التى يتحدث عنها ، وأنهم كانوا على أبواب نهضة فى السياسة والقانون والعلم والتربية والخلق ، وأنهم ثاروا بحكومة الشراكسة وطالبوا بالحرية والمساواة فى سنة ١٨٨٢ ، وأنهم نالوا حقهم الدستورى قبل ذلك بقليل ، وأن طبقة مثقفة من أمثال قاسم أمين كانت تنظر إلى الأمام بينما كان الدوق الفرنسى ينظر الى الوراء .

***

قرأ قاسم أمين كتاب الدوق داركور فأصيب بحمى لازمته عشرة أيام ، لأن كل هذه الآراء التى أتى بها الدوق الفرنسى كانت مثيرة لحواسه جميعاً . وقد كان لا بد لرجل مثله أن يصاب بمثل تلك الحمى ، لأن كل ذلك كان طعناً فى المصريين والمسلمين ، وقد كان مصريًا مسلماً فخزّ فى نفسه الألم حزا وطغت على حواسه أزمة عصبية حادة . وما لبث الألم النفسى أن أصبح ماديا فأثّر فى جسمه تأثيراً بالغاً ألزمه الفراش . ولا بد أنه قد وقعت كل كلمة من كلمات الدوق فى نفس قاسم أمين موقع الإهانة التى وُجّهت لشخصه هو

نفسه . وما دام قد أحس بهذه الإهانة فقد ثارت نفسه ، فراح يعرض آراء الدوق على أصحابه ، وراح يقلّبها فى نفسه على وجوهها ، وراح يبحث وينقّب عن مدى صحتها ، وراح بعد كل ذلك يجمع بحوثه فى كتاب يرد به على الدوق الفرنسى فألف كتابه « المصريون — رد على الدوق داركور » فى خلال أشهر قليلة .

وشعور آخر أثارته فى نفس قاسم أمين قراءة هذا الكتاب ، فقد كان الرجل مؤمناً بكثير من المثل العليا التى انتهت إليها الجماعة المستنيرة فى مصر ، وحينما قرأ هذا الكتاب أحسّ بأن آماله الكبار التى كانت تجول فى نفسه كادت تُنْتَزع من أساسها انتزاعاً . وقد كان حفيًّا بمثل هذه الآمال ، يرى أن قومه مقبلون على تحقيقها ؛ فخشى أن يكون هو وأصدقاؤه مخدوعين فيها ، وخشى أن تكون الجماعة المصرية حقاً قد قضى عليها التحلل الاجتماعى الذى وصفه الدوق . وساورته تلك الفكرة كالألم المبرّح ، ونهض إلى الرد عليها كما لو كانت قد لدغته أفعى . فقد كان هذا التشكك تشكيكاً فى وجوده فى نفسه . وهو لا يستطيع أن يعيش فى أمته إلا إذا آمن بأنها سائرة فى سبيل التقدم . فدفاعه عن المصريين إنما هو دفاع عن كيانه : دفاع عن آماله فى الوطن والدين . ثم هو بعد ذلك بحث يحاول به أن يطامن الشك الذى كاد يتسلل إلى نفسه . إنه تبرير لوجوده وإحياء للرجاء الذى كاد يخيب وبعث للروح التى كادت تخبو .

وهو يقول حينما يصف مشاعره عند قراءة الكتاب « لقد وجدت فيه من القسوة ما زاد على كل حد . وكادت تنتزع قراءتى إياه كل آمالى . ثم عادت نفسى فاطمأنت رويدا رويدا ففكرت طويلا فى كل ما قال عنا . بحثت كل المسائل التى بسطها وكل الأحكام التى انتهى إليها ، وسلخت نفسى من شخصيتى المزدوجة بوصف أننى مسلم ومصرى ، فحللت الموقف من غير ميل ولا هوى مسترشدا فى ذلك بالحق وحده . ولذلك فقد عبّرت عن عواطفى هنا كما يفعل الغريب الذى يعلم من أمر مصر ما أعلم ويحكم عليها بلا تحيز » وكذلك حاول قاسم أمين أن يعد دفاعا منطقيا عن مصر والمصريين والإسلام والمسلمين لكنه فى نفس الوقت بحث عميق يحاول به أن يعيد إلى نفسه اطمئنانها .

بدأ قاسم أمين رده على دوق داركور وهو مؤمن بمبدأ التقدم ، أى أنه مؤمن بأن كل جماعة من الناس تتطور إلى غرض أسمى ، وأنها فى تطورها قد تلقى أخطاء ، وقد تعانى الظلم والجهل والفقر ، لكنها على أى حال سوف تتغلب على كل ذلك ، فتصل فى يوم من الأيام إلى ما جعلته أمامها من أغراض سامية . ومصر نفسها كانت فى آخر القرن التاسع عشر تعانى كثيراً من هذه الأخطاء التى صادفتها فى انتقالها من طور إلى طور ، فإذا كانت مصر فى حالة من الجهل والفقر ، فقد مرت فرنسا بمثل هذا الطور ، لكن الماضى

لم يقف حجر عثرة دون تقدم الفرنسيين ، ولن يقف كذلك حجر عثرة دون تقدم المصريين . كانت فرنسا فى السنين التى سبقت الثورة الكبرى تعانى من النقائص ما هو معلوم ، فقد كان الزراع فيها مرتبطين بالأرض يباعون معها ويشترون كما يباع الرقيق ، وكان للمولى من الحقوق فى عهد الإقطاع ما لم يحلم به أمير شرقى ، وكان الأمر فى القضاء رهينا بالقوة الغشوم ، وكان أسلاف الفرنسيين يسامون الخسف والعذاب لأتفه الأمور ، وكان النبلاء الفرنسيون يحتقرون التجارة والصناعة والعلم والفن . لكن كل ذلك لم يمنع الأمة الفرنسية من أن تصبح أمة عظيمة ، فلِمَ يرى دوق داركور أن ماضينا سوف يحول دون التقدم الذى نرجوه ؟

ثم هو يحلل المجتمع المصرى ، فيبحث فى شئون الفلاح والحكومة والدين والنساء والخلق والعلم والأدب ، وله فى كل شأن من هذه الشؤون رأى ينبغى أن نجمله لك .

* * *

إن الذى افتقده الدوق داركور فى الجماعة المصرية من عدم وجود الاختلاف بين الطبقات آية من آيات كياننا الاجتماعى . ويرى قاسم أمين أن الإسلام قد سوّى بين الناس جميعا ، وليس من قواعد الجماعة المسلمة أن يرث الرجل امتيازا خاصا لأنه ولد من أسرة أو طبقة خاصة . بل لقد سبق

الإسلامُ كل النظم السياسية الثورية بألف سنة أو يزيد حين أنكر امتيازات الميلاد أو الثروة ، وهو من بين الأديان جميعاً يفسح المجال لكل ذى عمل أن يحسن عمله فيرقى من أدنى الدرجات حتى يبلغ أسماها . ثم ليس فى الإسلام طبقة تمثل السلطة الروحية التى كانت للكنيسة ، وليس فى الجماعة المسلمة فئة تتمتع بالسلطة الدينية على حساب الآخرين . وللفقراء والمحرومين حق معلوم فى أموال الأغنياء ، فلهم جزء من أربعين جزءاً من كل مال منقول . وهذه ضريبة لو أُحسن القيام عليها لاستطاع الفقراء أن يعيشوا فى هناءة إلى جانب الأغنياء . ومثل هذا النظام يوفّق بين المصالح المختلفة ، وهو فى مجموعه يمثل الاشتراكية الحقيقية . ثم قد انحدر إلينا من تعاليم الإسلام ما يؤيد دائماً الإخاء والمساواة ، فقد وقف علىّ بن أبى طالب أمام القاضى الذى عيّنه هو نفسه ؛ وخطب عمر لما أن ولى الخلافة ، فطلب الى المؤمنين أن يقوّموه إذا رأوا منه اعوجاجاً . وكل هذه ميزات ينبغى لأوروبا أن تتعلمها من الإسلام ويجب على فقهائها أن يوفقوا بينها و بين بيئاتهم الخاصة .

ذلك النظام الاجتماعى والسياسى قد هوى فى حال من الانحطاط والتدلّى حينما اضطرب المسلمون وأصبح الأمر فوضى ليس له أساس من علم ولا من دين . فقد قام على الجماعات المسلمة طغاة لا يعرفون إلا صالحهم الشخصى . وقد غبرت مصر قروناً يستغلها وحوش فى صورة آدميين ، أقبلوا عليها من كل

بقاع الأرض ، فكانت مسرحاً لفظائع الظلم والقسوة ؛ لكن الحكومة الحديثة فيها قد قامت بكثير من الإصلاحات ، فقد ألغت الكرباج والسخرة، وحددت مواعيد دفع الضرائب ، وثبتت مالية البلد ونشرت التعليم . وكل هذه الإصلاحات سوف ترجع بنا إلى النظام الأول الديموقراطى .

ويرد على الدوق داركور فيما يختص بالمرأة المسلمة فيقول : إن حظها قد ارتبط بحظ الرجل ، والذى أثّر فى مركز الرجل فى عصور الجهالة والظلم هو نفسه الذى أثر فى مركز المرأة ، وليس الدين هو الذى أنزل المرأة ذلك المنزل الوضيع ، وليس هو الذى وسمها بميسم المهانة والصغار ، لأن الإسلام قد منح المرأة المسلمة من الحقوق ما لم تكن قد مُنحته المرأة الفرنسية حتى آخر القرن التاسع عشر . « فالمرأة المسلمة ـ حتى إن تزوّجت ـ تحتفظ بحقوقها المدنية . فلها الكفاءة شرعاً على أن تتصرف فى أمورها دفعاً أو منعاً من غير أن تستصدر تفويضاً من زوجها أو من المحكمة . إنها تستمد كفاءتها هذه من شخصيتها هى نفسها ، وليس للزوج عليها إلا سلطان معنوى فحسب » .

وهو لا يرى فى تعدد الزوجات ولا فى الطلاق هذه الشناعة التى يراها كتاب الغرب لأن عدداً كبيراً من رجال المجتمع الغربى تتقسمهم زوجاتهم وخليلاتهم ، وليس هذا إلا تعدداً للزوجات ، لولا أنه تعدد غير شرعى ، ينتج أطفالا بلا آباء ، ويترك زوجات بلا أزواج ، ويطبع الفتيان والفتيات بطابع

الجريمة . وقد أدرك المشرع الإسلامى كل هذه الأخطار ، فحلل تعدد الزوجات والطلاق إذا فسدت العلاقة بين الزوجين . على أن الأصل فى الدين أن يكون للرجل زوجة واحدة ، وعلى أن يبقى عليه زوجه لأنه قضى على صاحب الزوجتين أن يكون عادلا أشد ما يكون عدلا ، واعتبر الطلاق حلالا ، لكنه حلال مكروه كالحرام .

ويحاول قاسم أمين أن ينقد حال المرأة فى أوروبا ، وهو يورد إحصاء قاسياً عن عدد المومسات فى فرنسا ، ويدلل على أن ربع المواليد فيها كانوا غير شرعيين ، وأن مائة وخمسين ألفاً منهم قتلوا وهم يخرجون من بطون أمهاتهم ، حتى ثار چول سيمون بهذه الحالة المزرية . أما السبب فى كل ذلك فيرجع الى الاختلاط الشديد بين الرجل و بين المرأة . فالمرأة الأوروبية تسقط دائماً فى حمأة الرذيلة ، لأنها تجد الظروف مهيأة لها . فهناك الفسح الطويلة التى يقضيها الرجل والمرأة وحدهما على الحشيش الأخضر البراق ، وهناك حمامات البحر حيث تلبس المرأة كل ما يبدى تقاسيم جسمها ، وهناك تلك الحفلات الصاخبة ، حيث يصطحب الصديق زوجة صديقه ، وهناك الولائم الفخمة حيث الخمر تعقد الألسن ، وحيث تلتف الساق بالساق ، وتصطك الأقدام بالأقدام تحت الموائد ، ثم هناك بعد كل ذلك المراقص حيث تلبس النساء من الثياب الشفافة ما يبلغ إلى تحت الأكتاف . تلك الصور المتهتكة

الباريسية التى ذكرها قاسم أمين هى التى أنتجت ذلك التحلل الخلقى فيما يختص بالمرأة الفرنسية ، وهى صور يجب أن نذكرها نحن حينما نعالج رأيه فى الحجاب .

وعنده أن وجهة النظر نحو المرأة تختلف عند المصريين عن ذلك كل الاختلاف . فالمصريون يؤمنون بأن الفضيلة مثل معنوى أعلى يضحّى فى سبيله بكل ملذات الدنيا . وقد استطاع المسلمون أن يضحوا بملذات الدنيا فى الألف والثلثمائة سنة التى عاشوها على ظهر الأرض وقد وثق كل ذلك من بناء الأسرة ، فمنعنا كل دخيل من أن يفسد علينا حياتنا الخاصة وطهرنا دورنا مما قد يفتن نساءنا .

* * *

وهو يفسر قواعد الإسلام الخمس ، ويثبت أن الإسلام دين فيه بساطة ، بحيث لم يتغير فى مئات السنين التى عاشها على ظهر الأرض . أما القرآن فهو كتاب خلقى خالص تحس فى آياته فلسفة واقعية فكرية ، كما أنه ينطوى على مبادئ إنسانية تؤثر فى الاجتماع والتشريع . والقرآن هو الذى خلق من أمة بدوية شعباً قوياً منظماً ، وهو الذى ثبّت فى نفوس المسلمين وحدانية الله ، وأشاع بينهم الإخاء والمساواة ، وألف بين قلوبهم بالصدق والكرم والإخلاص والأمانة والتسامح .

ولكن ألا يزال المسلمون مسلمين حقا كأول ما بدأوا ؟ كلا ! فهل الإسلام يأمر بالتهاون والانقسام والحقد والهوى والكسل والجهل والتعلق بالخرافات وكل ما نلقاه فى مصر من تلك المساوئ ؟ هل الإسلام هو الذى منع علماءنا من دراسة الرياضة والجغرافيا والكيمياء والطبيعة والفلك ؟ هل الإسلام هو الذى أسلم المصريين لجماعة من الطغاة المستبدين؟ وهل سمح الإسلام لهم أن يعبدوا صنما فى صورة إنسان ؟ لقد كان المسلمون عظماء حقاً حينما تمسكوا سياسياً بالنظام الإسلامى ، وحينما بنوا كيانهم الاجتماعى على الخلق الشديد وفى الوقت الذى تخلوا فيه عن تلك الأخلاق بدأت الكوارث التى تربصت لهم فى تاريخهم الحديث .

أما العلاقة بين الإسلام و بين العلم فقد عالجها قاسم أمين فى فصل قائم بذاته ، وهو يُرجع الدوق الفرنسى إلى كتابات المستشرق الفرنسى سنديو . فالإسلام لم يعترض تطور العقل الإنسانى ولا تقدم العلوم ولا الآداب . ولم يَحُلْ دون استكشاف الحقائق العلمية وقد مضت فترة كان العلماء المسيحيون ينقلون العلم عن العلماء العرب . وفى القرآن آيات تحض المسلم على أن يفكر فى خلق السموات والأرض ، وأن يبحث ماهية هذا العالم والعوالم الأخرى . وإنما عاق التقدمَ قوم من الجهلة الذين حاولوا تفسير القرآن حسب ما يمليه عليهم الهوى ، وعند ذلك تسربت إلى الدين فئة من الأوهام والخرافات هى

التى يحسبها السائحون من أصول الدين ، وليست فى الواقع من الدين فى شىء. وسيأتى يوم تجتمع فيه الإنسانيه تحت راية الإسلام حينما يتبينون أنه دين العلم ودين السياسة ودين الاجتماع .

* * *

ويبلغ قاسم أمين الفصل الأخير من كتابه حيث يتحدث عن «أوروبا» وهنا تشتعل نفسه اشتعالا ، لأنه يدافع عن بلاده بكل قطرة من قطرات دمه. والفصل فى نفسه آية من آيات الوطنية لأنه صرخة من فؤاد مفزوع ، ولأنه يبين لك مدى السخط الذى كان يحسد قاسم أمين على المنشئات الأوروبية التى حاول أهل الغرب أن يفسدوا بها أهل الشرق . هى صرخة داوية من صرخات السخط على المحاكم المختلطة والامتيازات الأجنبية وعلى العبث الذى لازم كل ذلك . ولن يحدثك عن كل ذلك مثل مستشار خبير .

ويرى قاسم أمين أن حكام مصر فى الزمن الحديث قد حاولوا أن يسيروا بالبلاد نحو التقدم المنشود . لكن الشوط الذى قطعوه قصير ، لأن أوروبا هى التى أقامت لهم العثرات فى طريقهم . أوروبا هى التى حاولت دائماً أن تؤيد مصالحها ، وأن تنبذ مصالح مصر ، ومصر نفسها أصبحت لعبة تعبث بها بلاد الغرب . فالقناصل فى بلادنا يكوّنون ممالك مستقلة تحمى المجرمين واللصوص وسفاكى الدماء من رعاياهم . وعلى الرغم من أن مصر تعاملهم بأكثر مما

ينبغى من التجلة والاحترام ، فإنهم لم يجدوا سبيلا للإساءة إليها إلا سلكوه ، محاكمهم تعتدى على محاكمنا ، وتجارتهم مفروضة علينا ، لأنهم عارضوا فى تعديل تعريفتنا الجمركية ، ورعاياهم يعيثون فى الأرض فساداً ، وينعمون بأكثر خيرات الأرض دون أن يدفعوا ضريبة واحدة . وهكذا نحتمل نحن هذه المساوئ التى يسمونها امتيازات ، لكنها فى الواقع لم تكن إلا سلاسل تقيد حركاتنا . وكيف يستطيع وطن هذا شأنه أن يسير نحو التقدم ، مادام كل مانفعله رهينا باشارة نتلقاها من أى بلد من بلاد أوروبا ؟ .

***

تلك خلاصة دفاع قاسم أمين ، لعلك قد رأيت فيها وجها من وجوه القومية المصرية فى آخر القرن الماضى . فإذا كان الدوق داركور قد بصرنا بكثير من المساوئ التى عانت منها الجماعة المصرية منذ خمسين سنة ، فإن قاسم أمين قد وصف لنا الأمثلة العليا التى كانت تحدو هذه الجماعة ؛ الدوق الفرنسى كان يصف الواقع ، والمستشار المصرى كان يعترف بهذا الواقع ، لكنه كان يبسط لنفسه ولأهل وطنه ذلك الأمل العريض . وسوف يكتب قاسم أمين بعد ذلك عن كل تلك المساوئ ، وسوف يدعو إلى إصلاحها بكل ما أوتى من قوة الإيمان ، لكن بدء تفكيره فى الإصلاح هى هذه المناقشة الكتابية الحادة التى رمته فى جنبات الشك حينا ، لكنها كانت مقدمة لبناء اليقين .

المصلح الاجتماعي

خرج قاسم أمين من المحنة التى عاناها ، وقد تفتحت عيناه على كثير من مساوئ البيئة المصرية . وكأنما قد استيقظت حواسه جميعاً بعد أن رد على الدوق الفرنسى . وتكونت نفس المصلح الاجتماعى منذ ذلك الحين . ولقد تهيأ له أن يكون مصلحاً اجتماعياً لما توفر له من الشجاعة والصداقة والإحساس المرهف . فكل هذه من لازمات المصلحين . ثم لقد كان كما أسلفنا رجلاً عنيداً يتشبث بالفكرة ولا ينثنى لرأى . لذلك لم يهن فى سبيل الدعوة التى دعا إليها بل ازداد بها تمسكاً . ثم لقد كان حراً يمقت التقاليد الفاسدة ويرى من حقه أن يدل أهل عصره عليها . فقاسم أمين من كل ناحية من نواحيه قد تهيأ ليكون صاحب مذهب وصاحب فكرة ، وقد تهيأ ليدعو إلى مذهبه وفكرته ، وقد تهيأ ليلقى فى ذلك كل العنت .

فى سنة ١٨٩٤ أتم رده على الدوق داركور ولعله استنفد كل ما أوتيه

من الحجج فى هذا الرد المجهد . فقد تطور تفكيره بعد ذلك تطوراً ظاهراً . وإذا كانت حياته وحدة خاصة فقد كانت السنوات الأربع بين سنة ١٨٩٤ وسنة ١٨٩٨ هى فترة الانقلاب فى هذه الوحدة . تلك السنوات الأربع هى عصر الثورة أو عصر التحفز للثورة . وبعد أن كان يتخذ خطة الدفاع أمام الدوق الفرنسى إذا هو يتخذ خطة الهجوم أمام البيئة التى عاش فيها . ولِمَ ذلك ؟ لأنه فى رده على الدوق داركور لمس كثيراً من العيوب والنقائص التى اضطر إلى الرد عليها . أحس أن المصريين فى حاجة إلى الخلق القويم ، وأن شعورهم القومى فى حاجة إلى التثبت ، وأن أولادهم وبناتهم فى حاجة إلى التربية . أحس بأن الدوق داركور كان على حق فى بعض ما وصف من مظاهر الاضمحلال الخلقى والمادى . وظل أربع سنين يدرس هذه المظاهر ، وينقب عن هذه النقائص ، وكان خلال ذلك يكاد يسجل دراسته بأن يكتب مقالات فى المؤيد يضمنها كل ما شعر به وفكر فيه . فجاءت هذه المقالات وكأنها دراسة مسلسلة لكل أمراضنا الاجتماعية . والحق أنها بعد خمسين سنة لا تزال تصور بعض أمراضنا الاجتماعية التى لم نتخلص منها بعد .

وينبغى أن نردد هنا ما أسلفنا عليك من فكرة قاسم أمين فى التقدم ومن إيمانه بالآية الشريفة : « إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » ، ومن دعوته أبناء جيله إلى دراسة عيوبهم ونقائصهم ، ينبغى

أن نردد كل ذلك لأنه هو نفسه قد اتبع هـذا الأسلوب عند ما بدأ يكتب مقالاته فى المؤيد . فقد حاول فيها أن يضع السبب إلى جانب النتيجة ، والعلة إلى جانب المعلول ، والداء إلى جانب الدواء . وكان فى كل ما كتبه ينم عن ثقافة خاصة واسعة المدى ألمّت بخير ما فى ثقافة الشرق وما فى ثقافة الغرب .

نقول كانت هذه فئة من المقالات كتبها قاسم أمين فى المؤيد ولم يذيلها باسمه وظهرت تباعاً بعد سنة ١٨٩٤ . وضع بعضها تحت عنوان « أسباب ونتائج » وكتب بعضها الآخر تحت عنوان «حكم ومواعظ» . والمجموعة الأولى تشمل أربعة عشر مقالا ، والمجموعة الثانية خمس مقالات فقط . والمقالات التسعة عشر تدل على نشأة قاسم أمين كمصلح اجتماعى . وهى مقدمة لما كتبه بعد ذلك عن المرأة . فإذا أردت أن تدرك العناصر التى تسرى فى هذه المقالات التسعة عشر وجدت أنها ثلاثة : أولها حول المال — وذلك فى المقالات السبع الأولى ، وثانيها حول التربية وذلك فى المقالات السبع التالية — ثم ثالثها حول الوظيفة وذلك فى المقالات الخمس الأخيرة ونريد أن نقف وقفة قصيرة عند كل واحد من هذه العناصر الثلاثة .

تحدث فى المقالات السبع الأولى عن الحالة الاقتصادية فى مصر وكان يحاول أن يوازن بين المال فى مصر والمال فى أوربا . وهو يثبت أن مصر بلد فقير تضرب الفاقة بين أهلها كما تضرب العلة فى جسم المريض . أما الفلاحون

فهم يعيشون على الشيء التافه الذى لايكاد يقوم بأودهم ؛ وأما التجار والصناع فهم لا يملكون من المال مايجعلهم فى صفوف الماليين ؛ وأما الموظفون فهم طبقة تدعى اليسار وما هى بذات يسار . وطبقات المصريين جميعاً تعيش فى ضنك مالى متصل ، لا تعرف كيف تصرف المال ، ولا كيف تستخدمه فى التجارة والصناعة ، ولا كيف تستغلّ الأرض ؟ والمصريون بعد ذلك لا شغل لهم إلا الإشراف على ميدان التنافس الاقتصادى ، يعجبون بهذه الأمة حينا ويهزأون بتلك الأمة أحيانا ، كأنهم عالم من كون آخر أتوا إلى هذه الأرض متفرجين .

ولعل قاسم أمين كان من أول الذين فرقوا بين العمل الحر المثمر وبين العمل الحكومى الذى يدور فى نظام رتيب يكاد يخلو من الإنتاج . وكان كذلك من أول الذين أرادوا فتح أبواب الأمل للناشئين المصريين . وقد كان يدرك أن مصر مقبلة على عصر تضيق فيه وظائف الحكومة حتى لايوجد محل للمغامرة والطموح . وهنا تلمح رسالة الجامعة المصرية فى أصلها الأول . وسنرى أن قاسم أمين قد أدرك فكرة الجامعة على أساس العمل الحر ، والإنتاج الطليق .

ثم هو ينساق فى حديث « المال والثروة » فيتحدث عن الوقف ونتائجه ولعله كذلك كان أول من عالج الوقف من حيث الشريعة ومن حيث

القانون ، ومن حيث أنه عرف جرت به العادة عند كبار الملاك فى مصر . وهو يذهب الى أن الأصل فى الوقف أن يكون « تجرد الشخص من أملاكه « وتخصيصها فى حياته أو بعد موته لعمل خيرى » وهو عمل بهذا الوصف لا يصدر إلا عن نفس طيبة وعواطف شريفة وأميال بارة وفكر عال » . لكن الوقف من حيث أنه عرف جرى به العمل فى مصر غير الوقف كما قررته الشريعة . فالوقف عنده لم يؤدِّ وظيفته لأن الآباء الأغنياء أرادوا أن يستخدموه فى غير ما وضع له . وصار أول قصد للواقف أن يحبس المال لا لفعل الخير ، بل ليحول بين ورثته و بين تبديده . فنتج من ذلك طبقة من الأبناء السفهاء الذين يعتمدون على الوقف كل الاعتماد . هذا الى ما يشوب الوقف من الإسراف وسوء الإدارة . وقد اقترح قاسم أمين فى سنة ١٨٩٤ أن تحل الأوقاف إن لم تنظم . وفى سنة ١٩٤٤ نوقش مثل هذا الاقتراح فى مجلسى البرلمان !

فإذا بلغ المقال الثامن من « أسباب ونتائج » تحدث عن التربية . ويروعك من مقالاته فى التربية أنه بدأ فيها وكأنه كان مربياً توفر على دراسة التربية . وقد أرجع أغلب النقائص التى كشفها عند المصريين إلى سوء التربية ووجد أن التربية كفيلة بأن تغير من المصريين وتتقدم بهم . وجد أن معنى التربية هو « التحول » الذى دعا إليه حين اعتنق فكرة التقدم . ولا ريب أنه كان على حق فيما ذهب إليه ، فالكثير من مفكرى هذا الجيل على أن خلق

أمة من الأمم يمكن تعديله بالتربيـة ، وأن فى كل أمة عيوباً أو نقائص أو صعاباً تخلقها لهـا طبيعتها الجغرافية ، أو عوامل الوراثة ، أو وجوه الحياة الاقتصادية فيها ، لـكنها تستطيع أن تصلح من شأنها إذا هى تذرعت بالتربية فبنَت لنفسها ما لم تجُد عليها الطبيعة به وعدّلت من حياتها الاقتصادية بمـا يضمن لها اليسر والرخاء .

ثم هو حديث فى تفـكيره حينما وجد أن التربية لا تـكون إلا بالعائلة . فالوالدان ـ والأم بنوع خاص ـ هما الموكلان بتربية الطفل . والتربية الحقة يجب أن تبدأ بالطفل من المهد . نقول إن هذا رأى حديث لأن الطفل أصبح عنـد المربين المحدثين هو مركز الاهتمام . والمربون اليوم على أنه ينبغى أن نعنى بأخلاق الطفل من سنته الأولى . يجب أن يهيأ له جو ملائم يُعوّد فيه العادات التى يبتغيها المجتمع فينشأ على الفضائل . وهـذا هو الذى دعا إليه قاسم أمين حين كشف علاقة الأم بتربية الطفل وهو فى المهد ، وحينما دعا الى بناء الأسره المصرية حتى يبنى جيل جديد من المصريين ، وحينما خرج على الناس بتحرير المرأة حتى يُبنى هذه الأسرة المصرية المنشودة .

والتربية عنده لا تقف عند مجرد التعليم ، بل هو يريد أن يكون لتربية العواطف المـكان الأسمى . إنه يفرق بين التربية والتعليم وهو لا يؤمن بما تُحشى به أذهان التلاميذ من ألوان المعرفة ؛ بل هو يهتم للعواطف التى تنشأ

فى نفوس الأطفال . والعواطف التى يريد تنشئتها تتصل بالدين والوطنية والإيثار وتفضيل الصالح العام على الصالح الشخصى . فهو يرى أن المصريين قد حرموا هذه العواطف النبيلة لأنهم لم يعودوها منذ الصغر ، فإذا اتخذت التربية وسائل تغرس بها المبدأ الدينى والإحساس الوطنى والغيرة أو الإيثار كان ذلك نجاحاً للجيل المصرى القادم. لو أنهم سمعوا ما قاله قاسم أمين !

والمقالة الرابعة عشرة من « أسباب ونتائج » جديرة بالدراسة لأنها تتصل بالإصلاح الأول الذى يذكر لقاسم أمين وهو إصلاح المرأة . فقد كان يرى أن الأم تؤثر فى نفس الطفل أكثر من أى إنسان آخر . فإن لم يكن لهذه الأم قسط من العلم شب أبناؤها وهم يدورون فى حلقة من الجهل الغاشم . وهذا ما كان يحدث فى البيئة المصرية . فلم يكن أبناء المدارس يلقون فى البيت مرشدا ولامعيناً . فإذا شب الطفل عن الطوق وجد هوة سحيقة تفصل بينه وبين أمه . وعاش الأمهات فى عالم من الأوهام والخرافات وعاش الأبناء فى عالم آخر تشوبه الأوهام والخرافات .

والمقالات الخمس الأخيرة تدور حول الوظيفة . وهى فى هذه المرة تحت عنوان « حكم ومواعظ » وتتصل بطبقة خاصة من أولياء الأمور أوالحكام أو الموظفين — سمِّهم ماشئت . وقد عالج قاسم أمين مشكلة الوظيفة من جهة الخلق ، وذهب إلى أن الأنانية هى التى تميز الموظف المصرى . وعنده أن

هذا الموظف لم يكن يحس بالتبعة ولا بالأمانة ؛ لأنه غارق فى نفسه لايرى فى حياته إلا أن يعمل لترقية شخص واحد هو نفســـه . وقد نشت المنافع الشخصية بين الموظفين حتى أصبح الصالح الشخصى هو الأمل ، أما صالح الوظيفة فهو رهين بالرغائب والهوى .

والموظف الكبير عند قاسم أمين كان رجلا دساساً يمثل فصولاً متقنة ذات مناظر عجيبة . وهو كان يتقلب بين الخديو وبين ممثل انجلترة وبين الوزراء. هو إنجليزى مع الانجليز ، وفرنسى مع الفرنسيين . وكذلك يدور فى حلقة يستطيع فيها أن يرضى الجميع ليرضى نفسه .

تلك خلاصة وجيزة للعناصر الثلاثة التى سرت فى مقالات قاسم أمين . إذا قوّمتها بمعاييرنا ـ بعد خمسين سـنة ـ وجدت أننا لا نزال فى حاجة إلى ترديد بعضها . على أن فـكرة التربية تسرى فى كل واحدة من تلك المقالات وهى الفـكرة التى كبرت ثم كبرت حتى طغت على كل فـكرة عداها . وحينما فـكر فى التربية فـكر فى الأسرة ، وحينما فـكر فى الأسرة فـكر فى المرأة . ولذلك آلى على نفسه أن يكتب عن المرأة ، واتسم اسمه بعد ذلك بإصلاحها .

***

ولـكن لِمَ فـكّر قاسم أمين فى إصلاح المرأة ؟ أترانا نرضى بأن نقف عند هذا الحد ؟ أم نرى أنه قد تأثر بحياة النساء فى أوروبا ووازن بين حالهن

و بين حال النساء فى مصر ؟ فى الحق إن كل ذلك هو الذى أنتج قاسم امين محرر المرأة .

لقد نشأ قاسم أمين فى بيئة كانت النساء فيها بمضومات الحقوق وكانت مشاهد الظلم والعسف تقع بين ناظريه : حقًّا كان قد ألغى الرقيق وأعتق الإماء ، ولكن آثار الرق كانت لا تزال باقية ؛ ثم كان الزواج غير المسئول سهلاً وكان الطلاق سهلاً ، وكانت هناك الضرائر وما يأتينه من ضروب العنف والصخب ؛ وكان هناك أيضاً جهل المرأة و إيمانها بالأباطيل والخرافات .

إذا نحن تتبعنا آثار هذه المشاهد فى نفس قاسم أمين وجدناها منتثرة فى كتبه هنا وهناك ، ووجدنا أنه قد سخط على هـذه المشاهد . فهو يذكر الأسر التى أضر بها الطلاق وتعدد الزوجات ، وهو يذكر النساء اللواتى لم يكن يُسمح لهن بتناول الطعام مع أزواجهن على مائدة واحدة ، وهو يذكر جهل الأمهات وما كنّ يعودن أبناءهن عليه من التخنث والخلق السقيم . ثم هو يذكر أن نصف هـذه الأمة ـ وهنّ النساء ـ كان غير عامل تـكاد تقتله البطالة .

تلك هى المشاهد التى تقلب فيها قاسم أمين، وهى بقايا لما كان يصفه رجل مثل إدوارد وليم لين فى أول القرن التاسع عشر . درس إدوارد وليم لين حياة المصريين فى الثلث الأول من القرن التاسع عشر وصوّر لنا صورة المرأة

المصرية بما لا يختلف كثيراً عما صوّره قاسم أمين فى ثلثه الأخير . بل لقد أتى اللورد كرومر نفسه بصورة مثل هـذه فى كتابه « مصر الحديثة » . وكان لا بد أن يشعر المصريون بانحطاط المرأة المصرية ، وكان لا بد أن يقوم مدافعون عنها يفصلون حقوقها فى الإسلام .

ولم يكن قاسم أمين أول من لفت نظر المصريين إلى تعليم المرأة ، فقد بدئ بتعليمها فى أيام محمد على نفسه حينما احتاجت صناعة الطب إلى قابلات. ثم فُتحت المدرسة السنية فى سنة ١٨٧٣ ؛ ولم يكن قاسم أمين أول من بحث فى أمر تعدد الزوجات والطلاق ؛ بل لقد كانت هناك سلسلة من المفكرين المصريين أتى بعضهم فى إثر بعض ؛ وقد تنبه هؤلاء إلى ما كانت فيه المرأة المصرية من جهل فدعوا إلى تربيتها ، وطالبوا بحقها المهضوم . وكان من هؤلاء على مبارك باشا ، وكان منهم رفاعة رافع الطهطاوى ، وكان منهم الشيخ محمد عبده . ولولا آثار هؤلاء المفكرين لما تهيأ لقاسم أمين كل تلك الحجج التى ساقها فى كتابيه « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » : لكن قاسم أمين كان أول من دعا الى كل هذه الإصلاحات بحماسة ، وكان أول من أصرّ على دعوته ، وكان أول من توفر على دراسة هذا الأمر توفراً يكاد يكون تامًّا .

كان انحطاط المرأة مما يُعيَّر به المصريون والمسلمون ؛ وكانت فى أوروبا حركة نسائية جاءت على أثر الحركات الحرة التى قامت فى أمريكا وانجلترة

وفرنسا . وكسبت المرأة الأوروبية والأمريكية بعض الحقوق السياسية وتهيأت لتكسب حقوقاً أخرى . وكان لا بد أن تتأثر مصر بهذه الحركات الحرة التى تتصل بالنساء حتى قبل أن يولد قاسم أمين . فتاريخ مصر فى القرن التاسع عشر كان يرتبط أشد الارتباط بممالك الغرب ، وثقافتها وعلمها وأدبها وقانونها وفنها ، كل هذه قد أحييت حينما اختلط المصريون بأهل الغرب ، وحينما ورد المصريون مناهل الغرب . وقد شهد المفكرون المصريون كيف تقدمت المرأة الأوروبية ، وكيف أثرت فى تقدم الحضارة ، وزار بعض المفكرين المصريين فرنسا وانجلترة ، فدعوا إلى تحرير المرأة فى مصر . ثم إنه قد تفتحت أعينهم على نوع من الاتهامات كالها أهل الغرب للمصريين والمسلمين ، فكان عليهم أن يبحثوا فى أمر النساء من حيث الدين. لذلك كتب على مبارك باشا عن الزواج ونصح بالاقتصار على زوجة واحدة وذهب إلى تحديد الطلاق ، وكتب رفاعة رافع الطهطاوى فحبذ فتح المدرسة السنية ، وكتب الإمام فى سنة ١٨٨١ عن « حاجة الإنسان إلى الزواج » وعن « حكم الشريعة فى تعدد الزوجات » . كل هذه كانت نظرات جديدة فى التفكير المصرى وكانت أبواباً جديدة للفقه الدينى . والحجج التى ساقها فقهاء وعلماء مثل هؤلاء ، هى التى أنبتت قاسم أمين المصلح الاجتماعى .

كتب على مبارك باشا كتابا اسمه «طريق الهجاء والتمرين على القراءة

فى اللغة العربية » وضمنه هذه النظرات الجديدة . وكان هذا الكتاب مقرراً على السنة الثانية من التعليم الابتدائى سنة ١٨٧٠ وما بعدها . وفى هذا الكتاب على صغره ذكر لضرورة تعليم المرأة ، وحكمة الزواج ، وذكر لكل ما يتعلق من تعدد الزوجات وغير ذلك . وكان قاسم أمين فى سنة ١٨٧٠ وما بعدها تلميذاً صغيراً فى مدرسة بالاسكندرية . أليس من المحتمل أن يكون قد قرأ هذا الكتاب وهو يافع يتأثر ؟ لا شك إن مثل هذه الآراء كانت هى البذرة التى أينعت وترعرعت وأنتجت دعوته لتحرير المرأة .

تحرير المرأة

نحن مقبلون فى هذا الفصل على أول كتاب كُتِب بالعربية من أجل تحرير المرأة . ونرجو أن نكون قد حللنا لك فيما أسلفنا مصادر العقيدة التى تكوّنت عند قاسم أمين من حيث دفاعه عن حقوق النساء . فقد أسلفنا عليك كيف كان وطنياً من نوع خاص وكيف كان يدافع عن مصر والمصريين أمام كُتّاب الغرب ، ثم أسلفنا عليك أيضاً نشأته كمفكر ومبلغ إيمانه فى نظرية التقدم ، وبسطنا لك مصادر ثقافته . فقد درس أصول الإسلام الأولى كما أُشرب أحسن ما كان فى الثقافة الفرنسية فى عصره ودرس الأصول الأولى للحضارة الصناعية الناشئة . وليس تحرير المرأة إلا نتيجة لكل تلك العوامل والحركات التى تحدثنا عنها : سواء فى ذلك العوامل الشخصية التى نشأت قاسم أمين أم العوامل العامة التى كانت وراء الحركات الاجتماعية فى أوروبا ومصر .

ولم يكن « تحرير المرأة » ابن الساعة التى كُتِب فيها لأن قاسم أمين كان قد فكر فى المرأة تفكيرا عميقا منذ أن ردّ على الدوق دار كور فى سنة ١٨٩٤ . وقد كتب كما رأيت مقالات فى الجرائد السيارة عن التربية كان قوامها تعليم المرأة . وقد ظل بعد ذلك أربع سنوات يدرس مركز المرأة فى الشريعة الإسلامية حتى يرى أكان حقاً ما جاء به الدوق دار كور ؛ ثم إنه أخذ يلحظ حالة النساء فى أيامه . ثم كانت النتيجة بعد ذلك أنه كتب « تحرير المرأة » فى سنة ١٨٩٨ . وهو يقول فى مقدمة كتابه : « هذه الحقيقة التى أنشرها اليوم شغلت فكرى مدة طويلة ، كنت فى خلالها أقلبها وأمتحنها وأحللها ، حتى إذا تجردت عن كل ما كان يختلط بها من الخطأ استولت على مكان عظيم من موضع الفكر منى ، وزاحمت غيرها ، وتغلبت عليه ، وصارت تشغلنى بورودها ، وتنبهنى إلى مزاياها وتذكّرنى بالحاجة إليها ، فرأيت أن لامناص من إبرازها من مكان الفكر إلى فضاء الدعوة والذكر » .

وبذلك أصبح قاسم أمين المدافع عن حقوق المرأة فى مصر والداعى إلى إصلاح حالها وتجلى فى دعوته بعد ذلك ما كان يمتاز به من الإيمان المكين والإحساس الشريف . وكان يعلم أن كثيراً من معاصريه سوف يضيقون به ضيقاً شديداً ، وسوف يزورّون عنه ازوراراً يعرّضه لسخطهم . لكنه على الرغم من كل ذلك أرسل دعوته مؤمنا بها إيمان المصلحين والأنبياء والمجاهدين .

* * *

وهو يمهد للحديث عن المرأة بأن يتأثر العلاقة بين الحكومة و بين حالة النساء . فالحكومة المستبدة تقضى على كرامة الرجل وتجعل الحق للقوة الغشوم . و إذا كانت القوة شعارا لجماعة من الجماعات آمن أفرادها باحترام القوة فى كل مظهر من المظاهر وخافوا من أصحاب القوة فى كل ناحية من النواحى . والمرأة بعد ذلك مستضعفة . وما دام الحق قد أصبح للقوة فقد أصبح الرجل يستبد بالمرأة . وعند قاسم أمين أن هذا هو السبب الذى نزل بمركز المرأة فى البيئات الشرقية إلى منزل وضيع . فالاستبداد بالرجل يُنتج دائماً الاستبداد بالمرأة . لذلك عاشت المرأة فى هذه البيئات خاضعة للرجل خضوعا أعمى ، وأُنكرت عليها حقوقها سواء أكانت زوجة أم أما أم بنتا « ولم يبقَ لها من الكون إلا ما استتر من زوايا المنازل ، واختصت بالجهل والتحجب بأستار الظلمات واستعملها الرجل متاعا للذة . يلهو بها متى أراد ويقذف بها فى الطرق متى شاء . له الحرية ولها الرق . له العلم ولها الجهل . له العقل ولها البَلَهُ . له الضياء والفضاء ولها الظلمة والسجن . له الأمر والنهى ولها الطاعة والصبر . له كل شىء فى الوجود ، وهى بعض ذلك الكل الذى استولى عليه » .

ثم يعدّد المظاهر التى تُحتقر فيها المرأة . فهى محتقرة حين يملأ الرجل

بيته بالجوارى بين بيض وسود ، وهى محتقرة حين يطلقها الرجل بغير سبب ، وهى محتقرة حين يأكل الرجل وحده وحين يخلف بقايا الطعام لأخته وزوجه وأمه ، وهى محتقرة حين يعيّن لها محافظا على عرضها يراقبها ويصحبها أنىّ ذهبت ، وهى محتقرة حين يسجنها فى المنزل وحين يعلن أن زوجه ليست أهلا للثقة والأمان ، ثم هى محتقرة حين يحال بينها وبين الحياة العامة « فليس لها رأى فى الأعمال ، ولا فكر فى المشارب ، ولا ذوق فى الفنون ، ولا قدم فى المنافع العامة ، ولا مقام فى الاعتقادات الدينية ، وليس لها فضيلة وطنية ولا شعور ملّى » .

لذلك دعا قاسم أمين إلى الرفع من شأن المرأة حتى تزول كل هذه السيئات ، وقد رأى أنه لا مناص من تربية المرأة فعليها أن تبلغ قدراً من العلوم يسمح لها باختيار ما يوافق ذوقها من العلم والاشتغال به إذا شاءت . ولا بد لها من أن تدرس بعض الحقائق العلمية ومواقع البلاد وعلم الهيئة والعلوم الطبيعية حتى تطرح الخرافات التى يولّدها الجهل : هذه التربية نفسها ضرورية للمرأة لأنها ذات أثر فعال فى حياتها . ولأنها تعينها على وظيفتها فى الهيئة الاجتماعية وفى الأسرة .

* * *

وقد بسط قاسم أمين وظيفة المرأة الاجتماعية فقال : إنه قد تعيش نساء

فقدن عائلهن فماذا عسى هؤلاء أن يفعلن ؟ أليس الأجدى علينا أن نعلم الفتاة حتى لا تقع فى العوز وحتى تجد وسائل لطلب الرزق إذا تلفتت فلم تجد من يعولها . العلم لمثل الفتاة التى تفقد أخاها أو أباها ، ولمثل المرأة التى تفقد ابنها أو زوجها ، سلاح يقيها مذلة المسألة ويرتفع بها عن مهاوى الرذيلة والدنس . أما فتاة أو امرأة من غير علم فهى لا تستطيع أن تبلغ حاجتها من أسباب العيش إلا إذا لجأت إلى الاستجداء أو بيع شرفها بيع سماح .

فإذا كان هناك امرأة ذات مال فإن العلم أنفع لها وأجدى . ذلك لأن العلم يفيدها فى تدبير ثروتها وإدارة شئونها : وكم من نساء تركن شئونهن لمن خان الأمانة من الأقرباء والوسطاء لأنهن غير متعلمات .

على أن العلم فى نفسه سبب من أسباب السعادة سواء أكان المتعلم ذكرا أم أنثى . وفى كل نفس شوق يدفع الإنسان إلى مطالعة الحقائق وممارسة الفنون ، وليس بين الرجل والمرأة فرق فى هذا الشوق . فالصغار من الذكور والإناث يستوون فى الاستفهام عن كل شىء يعرض لهم ، وطلب العلم بأسباب ما يقع تحت أبصارهم من الحوادث « وربما كان الولع بذلك فى الأنثى أشد منه فى الذكر » .

* * *

وحينما يخلص قاسم أمين من بسط القضية فيما يتصل بمركز المرأة الاجتماعى

ينثنى إلى وظيفتها فى العائلة ويثبت هنالك أن تربية المرأة لازمة لها كزوجة وأم . وهو يحس بأن العلاقة الزوجية تقوم قبل كل شىء على نوعين من الانجذاب : أحدهما الانجذاب المادى ، وثانيهما الانجذاب الروحى . وهذه العلاقة يجب أن تكون روحية كما تكون جسمية . فإذا وهنت العلاقة الجسمية بقيت هذه العلاقة الروحية بين الرجل وزوجه ، وذلك هو الذى يعبرون عنه بالحب أحياناً وبالصداقة أو الصحبة فى أحيان أخرى .

هـذه الصداقة التى عاش قاسم أمين من أجلها والتى رأيناها بينه وبين قادة الفـكر فى عصره : هذه الصداقة التى تكون بين الرجل والرجل : صداقة الإحساس والفهم والحديث هى التى أراد أن ينشئها بين الرجـل وزوجه . وينبغى عنـده ألا تكون المرأة فى العائلة إلا صـديقة أو صاحبـة أو قرينة لزوجها . مثل هذه الصداقة متجددة لا يضيق بهـا الرجل ولا المرأة . وهى ما يسميه الناس حباً روحانيًا . أما تلك اللذة الحيوانية التى يقضيها الإنسان فلا تلبث أن تزول ، إنها شىء يتبدد ولا يتجدد ؛ فهى حقيقة بأن يضيق بها الرجل والمرأة كلاهمـا . الصداقة أو قل الحب أو قل التفاهم أساس الزواج . وزواج فيه صداقة مفقودة شر أنواع الزواج .

ولا بد لهـذه الصداقة أن يكون بين الرجل والمرأة تكافؤ فى الشعور والتفكير . يجب أن يكون بينهما توافق فى كثير من ألوان الشعور وتبادل

فى اللذة والألم وتَشَارُكٌ فى الوجدان والرأى . فإذا كان الزوجان من مستوى فكرى أو وجدانى واحد أحسّا سعادة نسبية ، وتبادَلاَ شعوراً واحداً ، واتفقا على ما يسوّى بينهما من الألم أو الأمل . وهذا يفسر لنا هذه السعادة التى يشعر بها العامة حين يسكنون إلى نسائهم . فالعامل الفلاح والعاملة الفلاحة يستويان فى مبلغ الفكر والشعور وهما لذلك متفاهمان . أما المرأة فى الطبقات العليا عند قاسم أمين فقد انحطت عن الرجل ، فأصبحت لا تحس إحساسه ، ولا ترِد موارده ، ولا تستطيع أن تفسّر ما يأخذ وما يدع . تكره الكتب وتضيق بالعلم ، وتقضى أوقات الفراغ ـ وكل أوقاتها أوقات فراغ ـ تخلق المنازعات لتقضى على بقية السعادة التى قد يحس بها زوجها .

وبعد أن يثبت قاسم أمين أن تربية المرأة لازمة لها بوصف أنها زوج ينثنى إلى الأمومة فيثبت أن تربية المرأة لازمة أيضاً بوصف أنها أم . وقد علمتَ فيما مرّ بك كيف لمس قاسم أمين موطن الداء عندنا حينما تحدث عن التربية . لقد كان يرى أن التربية أساس كل إصلاح آخر ، وأن التربية الصحيحة كفيلة بأن تعالج كل تلك السيئات التى عدّدها . ثم لقد كان يرى أن عبء التربية يقع على كاهل المرأة قبل أن يقع على كاهل الرجل . فلا سبيل إلى تربية أمة حتى تصلح نساؤها ، ولا سبيل إلى إصلاح النساء إلا بتربيتهنّ .

وعنده أن التربية لا تقف عند إحسان القراءة والكتابة لأن هذه

وسيلة من وسائل التعليم فحسب ، إنما التربية الصحيحة هى التى تنشئ فى المرأة عقلا عمليا يصل السبب بالنتيجة والعلة بالمعلول . فإذا كسبت المرأة هذا العقل العملى حلّ عندها محل الخيال الغامض ، وأصبح عندها جملة من المعارف والحقائق لا تَمُتُّ بسبب إلى الخيال السخيف . وكلما تجردت المرأة من الأوهام والخيالات قربت من السعادة . فإذا نشأت المرأة وعندها ذلك العقل العملى تخلت عن العادات المرذولة والخرافات التى تقيّد المجتمع وأنشأت بنيها على أن يروا كل شىء فى وضعه الصحيح .

لكن الكثير يرى أن المرأة ناقصة العقل وأن التعليم للمرأة قد يكون سلاحاً للرذيلة كما يكون سلاحاً للفضيلة . بل يرى كثير من الكتاب الأقدمين أن التعليم قد يفسد أخلاقها . وقاسم أمين ينكر ذلك أشد الإنكار ويرى أنه إذا حدث أن بعض النساء قد فسد أمرهن لأنهن تعلّمن فليس هذا دليلا على أن التعليم مُفْسِد للنساء جميعاً . والحقيقة أن طهارة القلب فى الغرائز والطباع . فإن كانت المرأة صالحة زادها علمها صلاحاً وتقوى ، وإن كانت فاجرة لم يزدها العلم فجوراً . وهكذا الحال فى الرجال ، وضلال فريق من الناس بضرب من ضروب التعليم لا يمنع من تعاطيه . فقد قال الله فى شأن كتابه « يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِ كَثِيرًا . وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ »

ثم إن الأمر فى تربية المرأة كان أخطر من ذلك بكثير . لقد كان الأمر

أمر حياة أمة أو موتها . كان يعلم قاسم أمين أى قوة كانت تتربص بالشرق الدوائر . وكان يعلم أن فى الغرب قوماً أنتجوا حضارة سامقة : قوماً من المخترعين والكاشفين والمغامرين . وكان يعلم فوق ذلك أن أهل الغرب يذهبون إلى المغمور والمعمور من أصقاع الأرض يكشفون عن الكنوز التى عجز أصحابها عن استغلالها . أنت لا زلت تذكر فكرة قاسم أمين عن جشع أهل الغرب فى أهل الشرق ، ولا زلت تذكر الشعور الوطنى الذى شاع فى صدور المصريين فى أخريات القرن التاسع عشر . وقاسم أمين يرى أن كل محاولة لمقاومة هذا المذهب يجب أن تتمثل فى التربية : فى التحول أو التغير أو التمدن .

لم يكن أمام المصريين سبيل لمقاومة المغامرين إلا إذا تذرعوا بالتربية ، وليس من سبيل إلى تربية الأمة حتى تُربَّى المرأة كما يُربَّى الرجل : تُربَّى المرأة تربية جسمية وخلقية وعقلية مثل ذلك الذى نقرأه عن تربية المرأة الإنجليزية فى « سر تقدم الإنجليز السكسونيين » . وكأنما كانت تربية المرأة عنده واجبا وطنيا لأنه رأى أن تربيتها تستدعى خلق جيل جديد من المصريين يحاول أن ينهض كما نهض الرجال والنساء فى أوروبا وكذلك استطاع أن يعبّر عن شعوره الوطنى وهو يتحدث عن ضرورة تربية النساء .

وإذن فقد رأيت أن قاسم أمين قد ساق حججا رصينة حين أراد أن

يُثبت حق المرأة فى التربية . لقد عالج مركز المرأة كزوج وتأثر العلاقة بينها وبين زوجها . وعالج مركزها كأم ، وقدّر فضلها فى تربيـة الأولاد تقديرا عظيما ؛ ثم عالج مركزها من الأمة فرأى أنها هى التى تحمل أثقل الأعباء فى خلق الجيل الناشئ : ثلاث حجـج ساقها الواحدة تلو الأخرى ليبرهن بهـا على حق المرأة فى التربيـة . وهى حجج قالها بعض المصريين خلال القرن التاسع عشر لـكن أحدا منهم لم يجمعها فى صعيد واحد كما جمعها قاسم أمين ، ولم يعرضها عرضا منطقيا منسّقا كما عرضها قاسم أمين . وحسبنا أن نقول إن البذور الأولى كانت قد بذرت فى منتصف القرن التاسع عشر لـكنها أينعت على يدى قاسم أمين فى السنين الأخيرة من هذا القرن .

* * *

ويعرض قاسم أمين لثلاث مسائل شائـكة هى الحجـاب أولا وتعدد الزوجات ثانيا والطلاق ثالثا . ويبدى فى كل واحـدة من هؤلاء رأيا حديثا يذهب فيه إلى الاجتهاد فى الشريعة ويبدو فيه كما بدا المصلح الهندى الـكبير سيد أمير على حين جدّد رأى المعتزلة فى هذه المسائل الثلاث .

أما الحجاب فإن قاسم أمين يرده إلى الحجاب الشرعى وعنده أن الحجاب الشرعى يقتضى ستر جسم المرأة ما عدا الوجه والـكفين والقدمين . وهو يقتبس دليـلا على ذلك كلاما لابن عابدين وكلاما آخر من كتاب

« الروض فى المذهب الشافعى » ويروى حديثا عن النبى روته عائشة إذ قالت « إن أسماء بنت أبى بكر دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق . فقال لها يا أسماء ، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يُرَى منها إلا هذا وهـذا » وأشار إلى وجهه وكفيه . وإنما رُخِّص لها هذا القدر لأنها لا تجد بُدًّا من مزاولة الأشياء بيديها ومن الحاجة إلى كشف وجهها فى الشهادة والمحاكمة والزواج، وغاية ماورد فى كتب الفقه بعد ذلك ألا يخلو رجل بامرأة إلا مع ذى محرم . وعند ابن عابدين « أن الخلوة بالأجنبية حرام إلا لملازمة مديونة هربت ودخلت خربة أو كانت عجوزا شوهاء أو بخائل » .

ثم إنه ناقش الحجاب من وجهه الاجتماعى ، وعدّد ما جرّه الحجاب على الأمة المصرية من التأخر . وقد كانت الفتاة المصرية تتحجب من سن الثانية عشرة فهى لا ترى رجلا ولا يراها رجل ، وهى تجد نفسها فى دنيا من النساء لا شأن للرجال بها . وعند ذلك تقف معلوماتها عند حد ويقف تفكيرها عند الخرافة والوهم ، ولا تعلم من العالم الخارجى إلا أنها رهينة الأحباس . أما ملكاتها وهباتها فقد وُئدت ، وأما شوقها لكسب العلم فقد دُفِن بين الجدران . وكانت الحياة الداخلية التى تعيشها بين النساء والخدم كفيلة أن تميت فيها كل أفكارها التى نشأت معها فى أيام الطفولة . حتى صحتها نفسها كانت تذوى ، لأنها حرمت الشمس والهواء ، ولأنها كانت تظل قعيدة البيت

لا تزاوله ولا تبرحه . لذلك عاش المصريات عليلات الجسم والروح وظهرت عليهن علائم الشيخوخة وهُنّ فى ريعان الشباب .

ثم هو يناقش أثر الحجاب فى احتفاظ المرأة بعفتها . وهو يقول فى ذلك إن أمر العفة رهين بعوامل أخرى عديدة ربما كان الحجاب واحدا منها فقط . واختلاط الرجل بالمرأة اختلاطا شريفا يولّد نوعا من الألفة لا يكون للشهوة أثر فيه . لذلك كانت المرأة فى أمريكا أشدهن عفة ، ولذلك كانت المرأة فى القرية المصرية وفى البادية أقوى مراسا من المرأة فى المدينة المصرية . ثم إنه لا غناء فى عفة تُشترى بالأقفال والأحباس ؛ فالعفة دائما شىء خارج من النفس لا شيئاً مفروضاً على النفس . أما العامل الأساسى الذى ينتج العفة فإنما هو التربية . فإذا ساءت تربية فتاة كانت العفة وهما أو لغوا وكانت نفسية المرأة أبعد ما تكون عن الصلاح والرشاد .

وهنا نلتقى بقاسم أمين المربّى مرة أخرى لأنه يبسط القول فى تربية النساء بسطا يصف لنا فيه كيف ينبغى أن تتعلم المرأة تعلما يكسبها استقلالا خاصا فى التفكير والإرادة ، وكيف ينبغى أن تكون فردا له حواس وشعور ووجدان ؛ وهو يقيم لنا ذلك المثل الأعلى للتربية الذى تحدّث عنه عندما تكلم عن تربية الرجل . ثم إنه لا يرى أن تربية المرأة تقف عند حد الكتب بل هى تكسب لممارستها شئون الحياة . والحجاب الشرعى نفسه الذى وصفه

فيما أسلفنا لا يحول دون الحياة الحرة التى يمكن أن تعيشها المرأة المصرية إذا تخلصت من القيود التى أقحمت فى الدين إقحاما .

* * *

تلك خلاصة لما رآه قاسم أمين عن الحجاب وهى على قصرها تجمل لك الزبدة من آرائه . ولعلنا نرجع إلى وراء كرة أخرى : إلى سنة ١٨٩٤ فنرى النقاش بينه و بين الدوق داركور فى ضوء هذا الكلام . فى سنة ١٨٩٤ كان يدافع عن تحجب النساء وكان ينتقد حياة التهتك والفجور . لكنه فى سنة ١٨٩٨ رأى غير ذلك الرأى . ومعنى ذلك أنه كان قد اقتنع بأكثر الكلام الذى كتبه الدوق داركور فى كتابه عن حياة الأسرة المصرية . ومعنى ذلك أن هذه السنوات الأربع التى امتدت به قد أقنعته بأن وراء ما أتى به الدوق الفرنسى ظلا من الحق .

على أنه لم يكن مسرفا فى الدعوة إلى اختلاط الرجل بالمرأة كما يصوره الكثيرون من أنصاره وخصومه . بل لقد كان معتدلا فى دعوته كل الاعتدال . لقد كان يرى أن الحجاب يجب أن يُرَدّ إلى ما جاء به الشرع الشريف . فموقفه من اختلاط الرجل بالمرأة كموقف الكثير من المسيحيين فى إنجلترة وأمريكا والمانيا . وبين هؤلاء فئات كثيرة تحرم الرقص ، وتحتم أصول الحشمة فى الملبس والمظهر . وتحرم الظهور على شواطئ البحر بملابس

رقيقة . موقف قاسم أمين من مظاهر التهتك هـذه هو موقف هؤلاء المسيحيين ، بل هو موقف رجل مسلم أراد أن يرى المرأة المصرية كما كانت نساء المسلمين الأولين ، وهو بعد ذلك موقف سليم لأن للحشمة أصولا أخرى غير الاحتجاب بالمنزل من المهد إلى اللحد .

ينبغى أن نذكر دائمـا أن قاسم أمين كان ساخطا على مظاهر الفجور والتهتك وأنه فى كتابه « المصريون » كتب عن المرأة الأوروبية المتهتكة ما يدل على هذا السخط . وهو لا يدعو فى « تحرير المرأة » إلى تقليد النساء الپاريسيات ، وهو لا يرضى أن تنقلب الصور الپاريسية فتصبح قاهرية . فإذا كانت مثل هـذه الصور تروح وتغدو أمامنا فى مصر الآن فليست هى إلا نتائج لهذا التقليد الأعمى الذى ساق نساء أو رجالا من المصريين فى طريق شائك حسبوه طريق التقدم .

ثم إنه لم يكن فى وسائله يميل إلى الطفرة . تتحدث السيدة حرمه فتقول « لم يكن قاسم أمين فى دعوته يؤمن بالطفرة وإنما كان يرجو تحقيقها تدريجيا ، ولذلك فإنه لم يرغمنى على السفور عندما كان ينادى إليه ؛ وبالرغم من أننى لم أكن أعارضه فى دعوته بل كنت على الدوام مطيعة له راضية عن آرائه إلا أننى كنت أرتدى البرقع والحبرة شأنى شأن سيدات ذلك العصر . ذلك لأن قاسم بك كان يرى أن الطريق لم يمهد بعـد لتنفيذ فكرته فكان يكتفى

بالمناداة بها . ولكنه لم يطبقها فى أسرته إلا على النشء الجديد ، أعنى على بناته » .

حينما دعا قاسم أمين إلى السفور أخطأ كثير من الناس فهمه و بلغ الغباء وسوء الأدب بشاب منهم أن ذهب إلى داره يوما وطلب مقابلته . فلما قيل له إنه غير موجود طلب مقابلة حرم قاسم أمين ! فلما قيل له إن حرم قاسم أمين لا تقابل أحدا احتج وقال إن قاسم أمين يدعو إلى السفور و إنه يريد تنفيذ هذه الدعوة بمقابلة حرم قاسم أمين ومجالستها !

وهـذه العقلية تمثل لنا الرجال الذين اتخذوا دعوة قاسم أمين ذريعة فأسرفوا فى الاختلاط وانظر إلى ما تقوله السيدة حرم قاسم أمين بك فى حديث لها :

« إن بنات الجيل الحالى وشبابه قد أخطأوا فهم هـذه الدعوة وتجاوزوا مداها . فالمظهر الذى تظهر به فتيات هـذا العصر ليس سفورا بل هو بهرجة فظيعة لم يكن يخطر على بال قاسم أن ينادى بها أو يدعو إليها » .

« و إنما كان قاسم ينـادى بالسفور الشرعى الذى لا يزيد عن إظهار الوجه واليدين والقدمين ولا يتجاوز إلى إظهار العورات و إلى اختلاط المرأة بالرجل بالشكل الحاصل الآن » .

« و إنى أعتقد أن قاسم بك لو كان حيا لما رَضِى عن هـذه الحال ، بل لا نبرى إلى محاربتها » .

« ويحزننى أن أرى الكثيرين يسيئون إلى قاسم أمين إذ يحمّلونه المسئولية عن هذا التهتك وينسبونه إلى دعوته ، فيدللون بذلك على أنهم يسيئون فهم هذه الدعوة » .

وكل كلمة من هذه الكلمات صحيحة لو لم تقلها السيدة حرمه لاستنتجناها من كتابات قاسم أمين .

***

ذلك إذن رأى قاسم أمين فى الحجاب والسفور . أما رأيه فى تعدد الزوجات والطلاق فقد بيّنه عندما تحدث عن تكوين الأسرة . وقد أسلفنا وحدثناك عن فكرته عن الصداقة التى يجب أن تقوم بين الزوج وزوجه . وهذه الصداقة أو قل ذلك الحب أو قل ذلك التوافق هو الذى حاول أن يدعو إليه قاسم أمين فى بناء الأسرة المصرية . كان يعلم أن الأسرات ما هى إلا لَبِنَات فى بناء الأمة ، وأن كل أسرة يجب أن تكون وحدة يشيع فيها الإخاء والعطف . فإذا حال دون ذلك تعدد الزوجات أو الطلاق كان جديراً بالمسلمين أن يضعوا حداً لهذه الذرائع التى تحول دون الأسرة المصرية وما ينبغى أن تتمتع به من الألفة والسعادة .

وهو يجد فى الذكر الحكيم آيات تؤيد ما يجب أن يقوم بين الزوج وزوجه من هذا التوافق المنشود . وقد قال تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ

لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ».
فنظام الأسرة قائم على هذه المودة والرحمة لا على المتاع المادى . ثم إن الشريعة قد قضت بألا يُعْقَد زواج حتى يتأكد كل زوج من ميل الآخر إليه . هذا إلى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعامل زوجاته خير معاملة . فقد كان يلاعبهن ويمازحهن، وكان يرأف بالنساء عامة ويأمر بإحسان معاملتهن، وقد وردت أحاديث فى ذلك منها : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله » ومنها : « خياركم خياركم لنسائكم » .

هذا إذن أصل الأسرة . وقد سوّت آيات الذكر الحكيم بين حقوق الرجل وحقوق المرأة فى هذه الشركة لولا أنها جعلت الرجال قوامين على النساء . وقد جاء فى القرآن الكريم « وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ » أما ما أفسد على المسلمين من هذا الأصل النقى الكريم فإنما هما اثنتان أسىء استعمالهما وهما تعدد الزوجات والطلاق . وقد ذكرنا أن على مبارك باشا قد ساق حججاً عن تعدد الزوجات ، وكذلك ذكرنا أن حججاً فقهية ودينية قد ساقها الأستاذ الإمام . وقد جمع قاسم أمين هذه الحجج فى صعيد واحد وعالج هذه المسألة من وجهتيها الاجتماعية والدينية معالجة المصلح والفقيه . أما من الوجهة الاجتماعية فهو يوازن بين أسرة متحدة جمعت أفرادها رحم واحدة وبين أسرة متوزعة متنافرة تشقى فيها الأمهات ويرث أبناؤها بغضاء

أمهاتهم . إنه يصف حالة الخصام التى تحياها الأسرة الأخرى ثم يصف منظر « عائلة متحدة يعيش فيها الأولاد فى حضن والديهم تجمعهم محبة صادقة لا يتنافسون إلا فى زيادة الحب ، ولا يتسابقون إلا إلى الخير يصل من بعضهم لبعض، يربطهم ميثاق غليظ جعلهم كأعضاء جسم واحد، إن فرح أحدهم فرحوا وإن بكى بكوا معه . »

أما من الوجهة الدينية فهو يردد فكرة العدل ويذهب إلى أن مبدأ التعدد فى الشريعة يحتوى إباحة وحظرا فى آن واحد ؛ والشارع يعلّق وجوب الاكتفاء بزوجة واحدة على مجرد الخوف من عدم العدل ثم صرح بأن العدل غير مستطاع . فَمَنْ ذا الذى يمكنه أن لا يخاف من عدم العدل مع ما تقرر من ان العدل غير مستطاع ؟ وهل لا يخاف الإنسان من عدم القيام بالمحال ؟ « ولو أن ناظرا فى الآيتين — آية الإباحة وآية وجوب العدل — أخذ منهما الحكم بتحريم الجمع بين الزوجات لما كان حكمه هذا بعيدا عن معناها » .

كلام يذكّر الإنسان بما ورد فى آراء الأستاذ الإمام ، وهو يذكّر الإنسان بما ذهب إليه بعض فقهاء المعتزلة من تحريم التعدد ؛ فقد قالوا إنه ينبغى ألا يكون العدل فى النفقة فحسب ، ولا فى الملبس ولا فى المسكن ؛ بل ينبغى للعدل المطلق أن يكون فى الحب والتقدير . قالوا وحيث أن العدل فى توزيع

الحب والتقدير محال لأن رجلا لا يستطيع أن يحب اثنتين بقدر واحد فى وقت واحد ، فإن الذى جاء به القرآن الكريم إنما هو تحريم تعدد الزوجات. نقول إن كلمات قاسم أمين تذكر الإنسان بهذا الرأى لكنه هو نفسه يعلم أن السُّنّة والعمل جاءا بما يقتضى إباحة التعدد على ما أحيط به من حدود ضيقة.

وهو يذهب إلى أنه لا يباح للرجل اتخاذ زوجة أخرى إلا فى حالة الضرورة المطلقة — كأن أصيبت امرأته الأولى بمرض لا يسمح لها بتأدية حقوق الزوجية ، أو إذا كانت عاقرا . على أنه لا يرى حتى فى هذه الأحوال أن تبلغ مروءة الرجل حدا من الهوان بحيث يضيع حقوق امرأة لا ذنب لها . بل يرى من المروءة أن يتحمل الزوج ما تصاب به زوجه .

* * *

وقاسم أمين يناقش الطلاق بنفس هذا الأسلوب . وهو يرى أن الطلاق ضرورة من ضرورات المجتمع . فحيث يكون الزواج يكون الطلاق . لكنه لا يرى أن الأمر فى الطلاق مباح هذه الإباحة التى لحظها فى عصره ، ونلحظها نحن فى عصرنا الحاضر .

وهو يردد ما قاله بعض المصريين من أبناء جيله من أن أبغض الحلال إلى الله الطلاق ، ومن أنه لا ينبغى أن يكون الطلاق رهينا بمشيئة الزوج بل يجب أن يتدخل فيه قاضى الشرع . وهو يناقش فكرة الطلاق ثلاثا

ويذهب بعد أن يورد كثيرا من الآيات والشروح إلى أن إرسال الثلاث طلقات دفعة واحدة لا يعنى أن الطلاق قد وقع ثلاث مرات بل يجب أن تعتبر طلقة واحدة .

إنه يرى نصوص القرآن والسنة تحت النور الذى أضفاه فقهاء مجتهدون مثل الشيخ محمد عبده . وهو يتحلل من النصوص التى أسرف فى تأويلها بعض الفقهاء من المتزمتين . ومن هؤلاء من أوّل الألفاظ وتفنن فى فهم معانيها ، ومن هؤلاء من رأى أن ذكر اللفظ وحده كان كفيلا بأن يتم به الأثر الشرعى . « ولهذا قصروا أبحاثهم جميعها على الكلمات والحروف وامتلأت الكتب بفهم « طلقتك » و « أنت طالق » و « أنت مطلقة » و « علىّ طلاق » وطلقت رجلك أو رأسك أو عرقك وما أشبه ذلك . إنه يرتفع عن البحث فى مثل هذه المناقشات اللفظية التى انحدر إليها الفقه الإسلامى فى عصور التأخر العلمى والتزمت الدينى » .

وهو يخرج من كل الآيات التى تتعلق بالطلاق بدستور أراد أن يجعله من صلب القانون . فهو يرى أن تحال مشاكل الطلاق إلى قاضٍ شرعى وأن يرجئ القاضى الزوج وزوجه أسبوعا ، وأن يرسل — إذا أصر على الطلاق — حَكَمًا من أهله وحَكَمًا من أهلها . فإذا أخفق هذان أمكن للطلاق أن ينفذ . ثم إنه لا يصح الطلاق إلا إذا وقع أمام القاضى أو المأذون ،

وبحضور شاهدين ؛ ولا يُقبل إثباته إلا بوثيقة رسمية . كان هذا الاتجاه حديثاً منذ نصف قرن وهو لا يزال جديداً فى هذه الساعة التى نكتب فيها . فإذا كان القانون المصرى قد أخذ برأى فى مسألة الطلاق ثلاثاً دفعة واحدة أيكون طلاقاً بائناً أم لا يكون ، وإذا كان قد تواضع الفقهاء أخيراً على أنه لا يعتبر هذا طلاقاً بائناً ، وإذا كان السن الأدنى لزواج البنت قد حُدّد بالسادسة عشرة ؛ فإن الطلاق فى نفسه لا يزال مشكلة من المشاكل . وقد أثبتت إحصاءات سنة ١٩٤٣ أن هناك ٢٠٠ طلاق فى اليوم الواحد ، وأن ٧٢٠٠٠ طلاق قد وقعت فى مدى هذه السنة ، وأن من بين المطلقات ١٠٠٠٠ تركن أزواجهن ومع كل منهن ولد ، ونحو ٣٠٠٠ مع كل منهن ولدان، وما يقرب من ألف خرجن من بيوت أزواجهن ومع كل منهن ثلاثة أولاد أو أربعة و بينهن من ترك لها زوجها ثمانية أولاد .

ومعنى ذلك أن هذه المشكلة لا تزال قائمة ، وأن الضرر منها خبيث لأنه لا يتناول الأسرة المصرية من أساسها فحسب ، بل لأنه يتصل بمصاير الفتيان والفتيات . فإذا أنت راعك عدد أبناء السبيل الذين يتهالكون فى الطرقات و إذا أنت درست الإجرام فى مصر ، فاعلم أن كثيراً من هذه الشئون ترجع إلى هذه المشكلة الخبيثة : مشكلة الطلاق .

ذلك عرض لما ذهب إليه قاسم أمين فى تحرير المرأة . إذا نظرت إليه

نظرة هذا الجيل الذى نحن فيه رأيت أنه لم يكن مسرفاً فيما دعا إليه من السفور ورأيت أنه كان على حق فيما دعا إليه من توحيد الزوجة وتضييق الطلاق . أما مشكلة السفور فقد حُلّت وانطوى حلها على أن اشترك الرجل والمرأة فى مصر فى بناء وطننا القومى . وأما المشكلتان الأخريان فانهما لا زالتا باقيتين تجبهاننا كلما خطونا خطوة نحو الإصلاح الاجتماعى. وإذا كان أوساط المصريين قد تأثروا بهذه الدعوة التى بدأها قاسم أمين ، فإن الطبقات الدنيا ما زالت بمنأى عن كل ذلك . فلا زال تعدد الزوجات والطلاق فاشيين بين كثير من هذه الطبقات ، ولعلّ هذا هو بيت الداء الذى نلمسه فى كياننا الاجتماعى .

المرأة الجديدة

حينما طلع على الناس « تحرير المرأة » استقبلته بيئة محافظة تتمسك بالتقاليد والعادات . لذلك اهتز له الكتاب فى مصر ، وذهب كل فريق منهم إلى الوجهة التى رآها فيه . فمنهم من أمّن على كلام قاسم أمين ، ومنهم من دافع عن آرائه وكتب فى ذلك مقالات طويلة ، وكان أكثر هؤلاء من صحبه وإخوانه الذين فهموه ؛ ومنهم من سخر منه وسفّه آراءه ، وهؤلاء هم الذين اتخذوا الأمر أضحوكة يعبثون بها . ومنهم من تصدى للرد عليه بحكمة ووقار ، وهؤلاء هم الذين تحدثوا عن الحجاب والسفور حديثا علميا لكنهم لم يتفقوا وقاسما فيما ذهب إليه من ضرورة السفور ورفع الحجاب .

كان من الذين نصروه سعد زغلول فقد أيده فى إصلاحه الاجتماعى فأهدى إليه « المرأة الجديدة » ، ثم كان من الذين نصروه أيضا فتحى زغلول ، وهو يقول فى مقدمة كتابه « سر تقدم الإنجليز السكسونيين » حينما كان يتحدث عن الأثرة :

«وحب الأثرة هذا هو الذى جعل كتاب حضرة صديق الفاضل قاسم بك أمين « تحرير المرأة » الذى نشره فى الشهر الماضى لا يروق فى عينى بعض القراء لأنه يدعوهم إلى ترك عادة تأصلت فى النفوس ، وعُدّت من الاعتقادات، ونسبت غلطا إلى الشريعة السمحاء ، وليست منها فى شىء من الأشياء . مع أن المؤلف جمع فى كتابه من شوارد الأفكار ورفيع الأقوال ما يُعجب به كل محب لخير الأمة طالبا لنفعها ، ولكنه برهن على أن علة تأخرنا سوء حال النساء ، وتعدّى الرجال على حقوقهن . فكان ذلك النفور من كتابه لمجيئه على ما يخالف ما ألفته النفوس وارتاحت إليه » .

لكنّ أمثال سعد وفتحى كانوا أفرادا قلائل . وكان أغلب الذين تلقوا الكتاب يتناقلون أخباره فى بيئاتهم الخاصة فيزدادون به ضيقا و يزدادون على صاحبه سخطا ؛ بل لعله لم يقرأه الكثير بل ضاقوا به وسخطوا عليه دون أن يقرأوه . ويمثّل قاسم أمين حالة واحد من هؤلاء حين يكتب هذه المحاورة :

« سئل ح . بك — ما رأيك فى كتاب تحرير المرأة ؟

فأجاب — ردىء !! .،

— هل قرأته ؟

— لا !

— أما يجب أن تطلع عليه قبل الحكم برداءته .

— ما قرأت ولا أقرأ كتابا يخالف رأيي » .

وهؤلاء الذين حكموا على الكتاب من غير أن يقرأوه كانوا هم الأغلبية . والإشاعة تؤثر فى النفوس فى بعض الأحيان أكثر مما تؤثر الحقيقة . وكان حب الأثرة كما قال فتحى زغلول هو الذى حال بينهم وبين تفهم الموقف على حقيقته . بل لقد أعماهم التحيّز والهوى عن أن يقرأوا الكتاب نفسه ويتدبروا ما فيه .

ثم كانت هناك فئة من أهل الدين وافقت على كثير مما جاء به . ومن هؤلاء المرحوم السيد رشيد رضا حيث يقول « وأما الأمر الثالث وهو حكم الشرع فى هذه المكالمة فالمعروف أن الشرع إنما حرم الخلوة بالمرأة الأجنبية . وأخبار الصدر الأول مستفيضة بمكالمة النساء للرجال وحديثهن معهم فى الملأ دون الخلوة . وكفاك أن نساء النبى صلى الله عليه وسلم — وهنّ اللاتى أمرن بالمبالغة فى الحجاب — كنّ يحدثن الرجال حتى أن السيدة عائشة كانت قائدة عسكر ومدبرة له فى وقعة الجمل المعروفة . وما إخال أن مكابرا يقول إنها لم تكن تكلم أحدا منهم إلا ذا محرم » .

وكانت هناك فئة كبيرة من أهل الدين ذهبت إلى غير ذلك ، فندب واحد منهم للرد على قاسم أمين . فكانت ردوده تدور حول ما توقّعه قاسم

من تأويل لآيات الذكر الحكيم . وذهب هذا الجمهور إلى أن هـذه البدعة التى ابتدعها قاسم سوف تدك قوائم الإسـلام دكا ، وتقوّض دعائم الخلق تقويضا . وكل الذى سلّموا به أن المرأة يجب أن تتعـلم قليلا من العلم ، وأن الحجاب لن يمنعها من ذلك ، وأنهـا تستطيع أن تتعلم للتكسب إذا خيف عليها من الفقر أو الفاقة . ذلك أقصى ما ذهب إليه هؤلاء ، لـكن التقاليد نفسها التى درجت عليهـا المرأة كانت مقدسة عندهم لا سبيل إلى التحول عنها . نقول كان هذا رأى فريق كبير من أهل الدين ، كما كان رأى فريق كبير من غيرهم ممن تعلموا فى مصر وأوروبا . فقد كان أولئك وهؤلاء يحرصون على العادات القديمة ولا يتصورون حرية المرأة مع العفة والقناعة والـكرامة وحسن السمعة .

ولقد يطول بنـا الحديث إذا حاولنا أن نتقصى كل ما كتبه الباحثون والمفكرون فى نقـد كتاب « تحرير المرأة » ، لأن الـكتاب نفسه قد أثار فـكرة فى عقل كل باحث ، وقد بعث رأيا عند كل مفكر . ولـكن حسبنا أن نقول إن المستنيرين من معارضى قاسم أمين قد استشهدوا بكلمات كثير من الفلاسفة الذين لم يؤمنوا بحقوق المرأة . وكان من هؤلاء برودون وأوجست كونت وصمويل سميلز . فاتّخذت آراؤهم حججا يدافع بها خصوم قاسم أمين . وقد كتب الأستاذ الـكبير فريد بك وجدى ردودا عليه نشرها فى المؤيد ،

وكانت جميعها تدور حول الاختلافات بين المرأة وبين الرجل ، وحول مركز المرأة ووجوب الحدّ من حريتها . ثم إنه تحدث عن تبرج المرأة فى عصور الرومان الأخيرة ، وعن الحجاب وهل هو مانع كمال المرأة . وتشعر وأنت تقرأ كل هذه الفصول أن الأستاذ فريد بك وجدى يصور حالة مثالية للمرأة المتحجبة ، وأن كل الأضرار التى نتجت عن الحجاب لم يكن يُقام لها وزن . ثم إنهم كانوا يصوّرون المرأة الأوروبية فى أحط نواحيها وتلك حجة أوردها قاسم أمين نفسه حينما رد على الدوق داركور .

الخلاف إذن لم يكن فى تربيـة المرأة ، ولم يكن فى أن المرأة كانت فى حاجة إلى التربية ؛ بل كان الخلاف حول تحجب المرأة أو سفورها . وقد اتجهت حياتنا الاجتماعية إلى السفور دون الحجاب . وقد حمل السفور فى طياته كثيرا من الشرور التى توقّعها قاسم أمين وخصومه ، ولكن انقضى بانقضاء الحجاب أكثر ما كان من شرور الحجاب .

كانت هذه إذن ملحمة من النقاش ، فإن لم يكن قد أفلح قاسم أمين فى شىء إلا فى أن يثير مثل هذا النقاش لكفاه ذلك فخرا . لكنه حينما جمع ما قيل فى نصرة آرائه إلى ما قيل فى نقدها خرج وقد اقتنع برأيه أشد الاقتناع ، بل خرج وقد زاد يقينا فى حرية المرأة . وبعد أن كان فى « تحرير المرأة » معتدلا أشد الاعتدال يطلب تعليم الفتاة منهج الدراسة فى التعليم

الابتدائى ، إذا به يخرج على النـاس وهو يطالب بإشراك المرأة فى التعليم بوجه عام ، و بينما كان يضرب المثل فى تحرير المرأة بالمرأة الأوروبية إذا به يتجـه إلى المرأة الأمريكية ، وكانت قد بلغت من الحقوق ما لم تبلغه المرأة الإنجليزية ولا الفرنسية . لذلك خرج كتاب « المرأة الجديدة » بدعوة شاملة إلى حرية المرأة . وكأنما زاده ذلك الفتح الجديد جرأة على جرأته ، وكأنما رأى الفكرة ناقصة وحاول أن يُكملها فى « المرأة الجديدة » . وقد كان يفكر فى وضع كتاب يُكمل هـذه السلسلة من أعمال بعض من اشتهر من النساء فى التاريخ ، لـكنه توفى ولم تسنح له الفرصة بذلك .

بدا لقاسم أمين جلال الدعوة التى بدأ بها واستروح فيها نفحة من الحرية التى عاش يتنشقها فى فرنسا وعاش يتشوق إليها فى مصر . فأصبحت الدعوة للحرية ولمبدأ التقدم أو ما سماه هو « الـكمال الإنسانى » : نقول أصبحت الدعوة لـكل ذلك بضعة من وجدانه . لذلك قرأ بين سنة ١٨٩٨ و ١٩٠٠ كل ما وجده من الـكتب عن حرية المرأة حتى يغذّى ذلك الوجدان المتلهف . وكان محور قراآته جميعا ما قيل عن المرأة الأمريكية : فهو يفصل تاريخ المساواة بين المرأة والرجل فى ولاية يومنج تفصيلا دقيقا فيترجم أقوال رؤساء الحـكومة فيها فى سـنة ١٨٦٩ وفى سنة ١٨٧٣ وفى سنة ١٨٧٥ وفى سنة ١٨٨٢ . ثم هو يردّد ما قاله بعض الـكتاب مثل پول بورچيه عن المرأة

الأمريكية ، وعن التعليم المختلط بأمريكا . وهو يتحدث عما ذهب إليه ستيورت مِلْ عن حقوق المرأة السياسية ثم هو يذكر تاريخا مقتضبا للمرأة فى الروسيا وفى فرنسا . ولعله أراد بذلك أن يفتح أذهان المصريين إلى أن الحركة النسائية فى العالم كانت عظيمة شاملة ، وإلى أن مثال المرأة الأمريكية كان لابد أن يُحْتذى فى البلاد الأخرى . وهو فى كل مرة يحاول أن يدل القارئ على موطن العبرة فى أن النساء صالحات للوظائف العامة فى بلاد مثل يومنج فلِمَ لا يكون نساء مصر صالحات لأن يتعلمن فحسب ؟ ولِمَ لا يكون بعضهن صالحات لمزاولة التعليم وصناعة الطب ؟ إنه يعلم أن الغرض الأسمى ينبغى أن يكون تعلم المرأة تعلما كاملا وبلوغها حقوقها تامة غير منقوصة ، لكنه يرى أن المرأة المصرية فى زمنه لم تكن أهلا لبلوغ هذه الحقوق ولا لمشاركة الرجل حقوقه السياسية العامة ، وقد كان حسبها أن تبلغ من العلم ما يقوم بضرورات الحياة ، وما تسترشد به فى حياتها العائلية ، أما الحقوق السياسية فلم تكن قد تهيأت لها المرأة المصرية بعد .

إنه يقول بعد أن بيّن الحقوق السياسية التى بلغتها المرأة فى أمريكا « ولكن دعنا الآن من المزايا والحقوق السياسية ، فإنى ماطلبت ولا أطلب المساواة بين المرأة والرجل فى شىء منها . لا لأنى أعتقد أن الحجْر على المرأة أن تتناول الأشغال العمومية — حجراً عاما مؤبداً — هو مبدأ لازم للنظام

الاجتماعى . بل لأنى أرى أننا لا نزال إلى الآن فى احتياج كبير لرجال يحسنون القيام بالأعمال العمومية ، وأن المرأة المصرية ليست مستعدة اليوم لشىء مطلقاً ويلزمها أن تقضى أعواما فى تربية عقلها بالعلم والتجارب حتى تتهيأ لمسابقة الرجال فى ميدان الحياة العمومية »

* * *

فعلى الرغم مما أتى به قاسم أمين فى « المرأة الجديدة » من الموازنات بين المرأة فى أمريكا والمرأة فى انجلترة وبين المرأة فى مصر ، وعلى الرغم من أنه دأب على تقصى حقوق المرأة السياسية فى أوروبا وكانت لا تزال أحلاماً تطوف بعقول الفلاسفة ، وعلى الرغم من أنه كان يأمل ذلك لأن هذا فى نفسه كان تحقيقاً لمبدأ « التقدم » أو « الكمال » الذى آمن به إيماناً شديداً ، نقول على الرغم من كل ذلك لم يطلب قاسم أمين المساواة بين الرجل وبين المرأة المصرية فى الحقوق السياسية ، وفى حق التوظف بل هو يكتب « المرأة الجديدة » ليدافع عن حرية المرأة فحسب ، وليست فصول هذا الكتاب إلا تأييداً لفصول الكتاب الأول ؛ وهو تأييد يستند الى كثير من الأمثلة ، فإذا كان كتابه الأول دفاعاً عن الحرية فقد كان كتابه الثانى يتجه لذلك الدفاع .

وهو يردد مرة أخرى مظاهر الاستبداد التى تظهر بها المرأة فى مصر ؛ وهى عنده لا زالت مستعبدة يذلها الرجل حيث كانت . فهى فى نظر الشرع

إنسان حر له حقوق وعليه واجبات ؛ ولكنها فى نظر رئيس العائلة ، وفى معاملته لها ، ليست بحرة بل محرومة من التمتع بحقوقها الشرعية . وهذه الحال التى عليها المرأة اليوم هى من توابع الاستبداد السياسى الذى كان يخضعنا ونخضع له ؛ وهو يثبت بعد ذلك أن الشريعة التى منحت المرأة كل هذه الحقوق كانت أرقى من البيئة التى هبطت عليها . إنه يثبت أن تقدمنا الاجتماعى لم يكن فى درجة واحدة مع ما أتت به الشريعة السمحة . لذلك لا بد أن تتقدم هذه البيئة تقدماً اجتماعياً محسوساً حتى تبلغ مستوى المبادئ التى تضمنها الشرع . لا بد أن تتطور الحياة الاجتماعية فى الأمم المسلمة حتى يُعْتَرف للمرأة بشخصيتها الحرة وحتى تزول هذه الفكرة الخبيثة من أن المرأة ليست لها شخصية وليس لها حقوق .

ثم عرض إلى ما قيل من أن المرة تختلف عن الرجل ومن أنها خلقت أضعف وأن تركيبها الجسمانى والعقلى يختلف كل الاختلاف عن تركيبه . عرض لذلك كله وأتى بآراء لبعض الكتاب الفرنسيين والإيطاليين ينكرون أن هناك تلك الاختلافات التى بولغ فى تصويرها ؛ ثم إنه يفرض أن هذه الاختلافات موجودة فهل يدعو ذلك إلى إنكار حقوق المرأة وهل يدعو ذلك إلى الاستبداد بها ومعاملتها معاملة الرقيق ؟ إن اختلاف العقول لا يكون سبباً لتجريد الإنسان من حريته ، وإلا فإن الرجال أنفسهم يختلفون فى

مبلغ التعقل والتفكير لكن أحداً لم يقل إن رجلا يجب أن يقيد ويستعبد لأنه محدود التفكير .

والمرأة بعد ذلك مسئولة أمام الشريعة والقانون فى الدنيا والآخرة ، فهى لا تُعفى من العقاب على جريرة تقترفها أو إثم ترتكبه . بل الرأى العام يجسّم مسئوليتها فى بعض المواضع . فهل تؤخذ بكل جريمة ترتكبها ثم لا يكون لها بعد ذلك حرية التصرف فى كل أمر من أمورها ؟ « إن عقلا لا يقبل أن تُعتبر المرأة إنساناً كامل العقل والحرية من جهة استحقاقها لعقوبة الشنق إذا قتلت ، ثم تعتبر ناقصة العقل بحيث تُحرم من حريتها فى شئون الحياة العادية »

* * *

وهو يسوق بعض الحجج التى تؤيد السفور وهو لا يتحدث هذه المرة حديثاً دينياً لأنه يكتفى بما بيّن من حدود الدين والشرع فى « تحرير المرأة » بل هو يتحدث عن الحجاب وعلاقته ببطالة النساء وعما يجده النساء فى هذه البطالة من عوامل التفكير الذاتى وعما يلقينه من الأمراض التى تنتاب أعصابهن وهنّ بعد ذلك لا يحسنّ تربية الأطفال لأن تربية الأطفال فى حاجة إلى من يحسن ملاحظة البيئة التى حوله ، أما هنّ فلا يحسنّ ملاحظة البيئة لأنهنّ منقطعات عنها .

كلام يذكّرك بحديثه فى « تحرير المرأة » لكنه فى هذه المرة يأتيك

بالأمثلة تلو الأمثلة ، وهو يذكّر المصريين فى كل صفحة من كتابه بأنهم كانوا يطلبون الحرية لأنفسهم ، وأنهم يجب أن يمنحوها نساءهم كما طلبوها لأنفسهم وهو يحذرهم كذلك أنهم إذا منحوا الحرية لنسائهم فسيقبلون على عصر من الفوضى فى فترة الانتقال ، لكنّ الأمور لن تلبث حتى تستقر فتصبح حرية النساء عرفاً جارياً ، ونجنى ثماره من حيث تعليم المرأة وتعليم الأطفال و إصلاح حال الأسرة ونهضة الأمة . وقد دلّت التجربة على أن الحرية هى منبع الخير للإنسان وأصل ترقيته وأساس كماله الأدبى ، وأن استقلال إرادة الإنسان كانت أهم عامل أدبى فى نهوض الرجال فلا يمكن أن يكون لها إلا مثل ذلك الأثر فى نفوس النساء .

* * *

لكنّ كثيرا من الذين جادلوه قد ذهبوا إلى أن الحجاب واجب شرعى . فإذا أريد بالمرأة أن تتعلم فلها ذلك من سن السابعة إلى الثالثة عشرة . فالحجاب عندهم ليس بمانعٍ المرأة من أن تتعلم . فإذا أريد بها أن تتعلم إلى ما بعد الثالثة عشرة وجب أن يُنشأ للنساء معاهد يعلمهن فيها النساء . وهنا يقف قاسم أمين وقفتين . فهو يقف وقفة أولى عندما يفرّق بين التعليم و بين التربية . وهذا الذى ستتلقاه فتاة فى سن الثالثة عشرة بين جدران أربعة لم يكن إلا تعليما فحسب . إنه يتصل باللغة والحساب والجغرافيا وغير ذلك من

العلوم ، أما التربية فإنما تتناول (العمل) قبل كل شيء . وكل تربية لاتقوم على « عمل » فهى واهية لا أساس لها . ولا سبيل إلى هذا العمل إلا إذا زاولت الفتاة بعض الأمور ، وشاهدت بعض الحوادث ، ولاحظت بعض الناس ، وجرّبت بعض الأحوال . فهى عند ذلك تستطيع أن تستخدم ما جُبِلت عليه من الموازنة ، وأن تختبر كل شيء بنفسها فتقوم معلوماتها على أساس من التجربة الصحيحة .

وعنده أنه « لا يكفى لإخراج المرأة المصرية من هذه الحياة الصناعية التى يشكو الكل منها أن تمكث بضع سنين فى المدرسة ، ثم تنتقل منها إلى بيت تُحجب فيه بقية عمرها ، بل يلزم أن تستمر فى الاعتناء بجسمها وعقلها بعد المدرسة ، ونشركها فى حياتنا الطبيعية . يلزم أن نضع يدنا فى يدها ، ونسير معها فى الأرض ، ونريها عجائب الكون ولطائف الصناعة ، ودقائق الفنون ، وآثار الزمن الغابر ، واختراعات الزمن الحاضر . يلزم أن تقاسمنا أفكارنا وآمالنا ، أفراحنا وآلامنا ، وتحضر مجالسنا فتستفيد مما يُعرض فيها من الأخلاق والأفكار والمباحث ، وتفيدنا بحملنا على رعاية الحشمة والتأدب فى القول » .

وهو يقف وقفة أخرى لمن قارن بين المدنية الأوروبية وبين المدنية الإسلامية فقد ذهب قوم إلى أن تحجب المرأة كان أصلا من أصول المدنية الإسلامية ، وأننا إذا تخلينا عنه فإنما ننكر الحياة الإسلامية على أنفسنا .

وهو لا يرى هـذا الرأى ، بل هو ينكر على هؤلاء أنهم يتمسكون بمجد آبائهم القديم دون أن ينظروا إلى المستقبل . وهو يرى أنه لم تمر على الحياة فى العالم صور الكمال ، بل الكمال موجود فى المستقبل فينبغى أن نعيش للمستقبل . فإذا آمن فرد بمبدأ التقدم استطاع أن يتخلى عن كل تلك التقاليد التى تحد من تفكيره وتربطه بالقديم العتيق .

* * *

تلك هى جملة الأفكار التى ينطوى عليها كتاب « المرأة الجديدة » . إذا نثرتها جميعاً وجدتها كما أسلفنا تأييداً للأفكار الأولى التى وردت فى « تحرير المرأة » . لكنها فى بعض نواحيها أكثر طموحاً من أفكار الكتاب الأول . فإذا كانت فكرة قاسم أمين قد نشأت عند ما كان يرد على الدوق دار كور فإنها بلغت عنفوانها فى كتاب « المرأة الجديدة » حين أوضح فكرته عن الحرية وعن مبدأ التقدم وعن مركز المرأة فى العائلة والمجتمع . هـذه الوحدة الفكرية يجب أن نلحظ نشأتها فى كتاباته من مؤلف الى مؤلف . وعلى الرغم من كل ما لقيت هـذه الفكرة من نقد فإنها لم تكن إلا تعبيراً عن آمال رجل كان يعمل للمثل الأعلى . وكان يسمى هـذا المثل الأعلى « الكمال الإنسانى » وكان يرى أن حرية المرأة لازمة لبلوغ هذا الكمال .

فكرة الجامعة

لم يكن أمر التربية فى الخمس والعشرين سنة التى تلت الاحتلال البريطانى مما يطمئن إليه المصريون . ذلك بأن المصلحين من الإنجليز لم يفكروا فى التوسع فى التربية إلا بالقدر الذى تسمح به مالية عاجزة يريدون إصلاحها . ثم إن الغرض من التربية أو التعليم عندهم لم يكن إلا غرضا نفعيا محضاً . فقد كانت الحكومة فى حاجة إلى موظفين ، وكان هؤلاء الموظفون يتخرجون فى المدارس الابتدائية والثانوية فاقتصر همّ المسئولين من الإنجليز على تخريج هؤلاء الموظفين أفواجاً ، واضطروا فى سبيل إنقاذ مالية البلاد إلى أن يقتصدوا فى نفقات التعليم .

ولعل هذه النظرة كانت نتيجة لهذا الشذوذ الذى كان يميّز موقف انجلترة من مصر . فقد كان يحس الانجليز بأنهم فى قلق مستمر ، فهم لم يدخلوا البلاد فاتحين فيعلنوا الحماية عليها وضمها إلى ممتلكاتهم ، ولاهم يريدون التخلى عنها؛ لذلك اضطربت سياستهم فى شأن التعليم وبدلا من أن ينظّموا سياسة طويلة

المدى تدوم على مر السنين ، قصروا همّهم على سياسة قصيرة المدى بحيث تؤدى إلى الأغراض الحكومية التى تطلبوها من التعليم . لذلك نشأت فكرة الشهادة فى مصر ؛ ولذلك كان للإجازات المدرسية هذه القيمة التى ما نزال نعانيها حتى هذه الساعة التى نحن فيها .

وأقبلت سنة ١٩٠٦ والحال على ما ترى . لكن النهضة القومية التى بسطنا الكلام عنها فى معرض حديثنا عن عصر قاسم أمين كانت قد تمخضت عن فكرة عامة شاعت بين فريق من المفكرين المصريين ؛ تلك هى فكرة الجامعة .

وفى الثانى عشر من أكتوبر من هذه السنة اجتمع هؤلاء فى منزل سعد زغلول وكان يتولى سكرتارية هذه الجلسة قاسم أمين ؛ وأخرجوا للأمة البيان التالى وهو الذى يحمل فكرة آبائنا حينما فكروا فى إنشاء الجامعة المصرية منذ نيّف وثلاثين عاما .

« فى هذه السنة هبّ فى الرأى العام تيار من نفسه لتحقيق هذه الأمنية؛ لأن الأمة انتهت بأن تفهم تمام الفهم أن طريقة التعليم فيها ناقصة ودائرته ضيقة تقف وتنتهى بالطالب عند بلوغ الغاية ، وأن من وراء الحدود التى انحصر فيها معارف سامية ، وحقائق عالية وقضايا جليلة ، ومشكلات غامضة ، تشتاق النفوس إلى حلها ، واختراعات جديدة وتجارب بديعة واختبارات

كثيرا ما شغلت وتشغل عقول كبار العلماء فى أوربا ولا يصل إلينا منها إلا صداها الضعيف ... »

تلك مقدمة البيان الذى خرج من بيت سعد زغلول ، تستطيع أن تلمح وراءه قاسم أمين سكرتير اللجنة التى أخرجته ، وهو يدلك على أن سعدا وقاسما وأصحابهما كانوا يقدرون كل التقدير رسالة هذه الجامعة التى أرادوا إنشاءها . لقد كانوا وطنيين؛ وكانت الوطنية تتمثل عندهم فى أن تقوم بلادهم بقسطها من حيث العلم والفلسفة والقانون والفن . ثم لم يكونوا يرضون بأن يكون كسب المال ، أو تكون الوظيفة هى الغرض الأول والأخير من التربية وكان قاسم أمين يعبر عن رأيهم فى ذلك أوضح تعبير .

وفى ١٥ من أبريل سنة ١٩٠٨ ألقى قاسم أمين خطابا جامعا فى سرايه حين وقف حسن باشا زايد خمسين فدانا على الجامعة المصرية الناشئة . وفى هذا الخطاب يوضح فكرة الجامعة مرة أخرى إذ يقول :

« نحن لا يمكننا أن نكتفى الآن بأن يكون طلب العلم فى مصر وسيلة لمزاولة صناعة أو للالتحاق بوظيفة ، بل نطمع فى أن نرى بين أبناء وطننا طائفة تطلب العلم حبا للحقيقة ، وشوقا إلى اكتشاف المجهول : فئة يكون مبدؤها التعلم للتعلم . نود أن نرى من أبناء مصر كما نرى فى البلاد الأخرى ، عالما يحيط بكل العلم الإنسانى ، واختصاصيا أتقن فرعا مخصوصا من العلم ،

ووقف نفسه على الإلمام بجميع ما يتعلق به ، وفيلسوفا اكتسب شهرة عامة وكاتبا ذاع صيته فى العالم — وعالما يرجع إليه فى حل المشكلات ويحتج برأيه . أمثال هؤلاء هم قادة الرأى العام عند الأمم الأخرى ، والمرشدون إلى طرق نجاحها ، والمدبرون لحركة تقدمها ، فإذا عدمتهم أمة حل محلهم الناصحون الجاهلون والمرشدون الدجالون »

ثم هو يتحدث فى هذا الخطاب عن المتخرجين فى المدارس العليا فلا يرضى بهم لأنهم يعيشون على مبدأ « اكسب كثيرا واتعب قليلا » وهو يأمل أن تدب فى الشباب روح العمل الصالح ، وأن تكون الجامعة المصرية مهدا لتلك الحركة العلمية المباركة التى دعا إليها وأصحابه ، ودفعهم إلى الدعوة إليها شعورهم الوطنى ، وحاجتهم إلى العلم الخالص » .

ذلك إذن أثر قاسم أمين فيما يتصل بفكرة الجامعة . وإذا أنت بحثت ما قاله المرحوم ثروت باشا حين افتُتحت الجامعة المصرية بعد ذلك بشهور ، وإذا أنت درست ما أذاعه المغفور له الملك فؤاد فى سنة ١٩١١ ، حين كان رئيس الجامعة المصرية ، وجدت أن فكرة قاسم أمين قد تنشأت . بل إذا أنت حاولت أن تدرس وظيفة الجامعة فى هذه الساعة التى أنت فيها لم تستطع أن تحددها إلا بما قاله قاسم أمين حين أذاع بيانا فى سنة ١٩٠٦ وحين ألقى خطابا فى سنة ١٩٠٨ .

« الجامعة هى جماعة من العلماء أخلصوا للعلم فوقفوا عليه ملكاتهم ووقتهم كما يقف الرهبان أنفسهم على عبادة الله . وإلى جانب أولئك العلماء شبان أذكياء : يخدمون العلم كما يخدمه أساتذتهم على السواء عن طريق التعاون من جانب الطلبة ، والإرشاد من جانب الأساتذة . والجامعة لذلك وحدة اجتماعية متضامنة الأفراد الذين يؤلفونها : من الأساتذة والطلبة والمتخرجين . فمن الخطأ الظن أن أغراض الجامعة تنحصر فى شىء واحد هو تحضير موظفين لإدارة الحكومة . وإنما أنشئت الجامعة القديمة منذ ثلاثين سنة لتؤلف بيئة مستقلة فيها . يبحث كل عضو من أعضائها عن الوسائل المؤدية لكمال وجوده الخاص على أساس من حرية التفكير والنقد على وجه الاستقلال ، لا الحفظ والتصديق لكل ما يقال » .

تلك فقرة من حديث ألقاه الأستاذ لطفى السيد باشا فى ديسمبر من سنة ١٩٤٠ حين كان مديرا للجامعة ، وهو يذكّرنا بذلك الحديث الذى تحدث به قاسم أمين فى إبريل سنة ١٩٠٨ قبل أن يموت بأسبوع واحد وقبل أن تصبح الجامعة حقيقة واقعة .

قاسم أمين الأديب

رأيت فيما مرّ بك من صحائف هذا الكتاب أن قاسم أمين قد اشتهر بإصلاحه الاجتماعى وأنه قد بلغ مكاناً جديراً بالذكر حتى لقد اقترن اسمه باسم تحرير المرأة فى مصر إلى الساعة التى نحن فيها . ولكنّ لقاسم أمين وجهاً آخر ينبغى أن نحلله لك وينبغى أن نبسط لك الكلام فيه . ذلك أنه كان أديباً يهتم بإصلاح اللغة، ولو أنه عاش طويلا لاستطاع أن ينتج من كتب الأدب ما يذيع صيته بوصف أنه أديب وناقد .

والأديب يمتاز بإحساس مرهف وبأن إحساسه يتأثر وينفعل . وقد كان قاسم أمين من أولئك الذين كبرت عندهم العاطفة ، فاستطاع أن يندس بإحساسه فى كل مكان وفى كل بيئة فيصوّر لنفسه أفكار الناس وآمالهم ويصوّر فى كتابته بعض تلك الأفكار والآمال . هو يرى الناس كيف يتصرّفون فيما قلّ أو جلّ من أمورهم ثم هو يرجع إلى نفسه ليرى هؤلاء

الناس فى النور الذى يضفيه عليهم خيـاله . لذلك يشترك قاسم أمين وكبار الأدباء العالميين فى أنه يهتم بدقائق الأمور حتى يستخرج منها جلائلها . كان يحيا حياة عاطفية تستطيع أن تستوعب كثيراً من الإحساسات وحاول أن يصور كل هذه فى كلمات قليلة انتشرت فى كتبه وجُمع بعضها أخيراً فى كُتيب صغير اسمه « كلمات قاسم أمين » .

ولسنا ندرى أإذا كان قد أتيح لقاسم أمين أن يكتب فى الأدب التمثيلى أكان يكتب مسرحيات تشاكل مؤلفات الروائيين من أدباء الغرب ؟ إن قوام الأدب هو تلك الحساسية التى نراها عند قاسم أمين ، على الرغم من أنه لم يترك إلا نبذاً غير متماسكة يصف فيها بعض وجوه الحياة فى عصره . وهو يعلم حين يكتب ذلك أنه يقف موقفاً روائياً أو قل مسرحياً من الحوادث التى يرى . وهو يقول فى كلمة له « يقصد الناس التياترات لرؤية الحوادث الغريبة وسماع القصص المضحكة أو المبكية . والعاقل يكتفى بما يراه حوله ويسمعه ، يتفرج مجاناً على وقائع لم تبلغها مخيلة المؤلفين ولا مهارة الممثلين » . وما نحسب إلا أن قاسماً قد استجاب لكل الوقائع التى رأى فانفعل لآثار بيئته ولو أنه أوتى حظاً من التأليف الروائى لخرجت من بين يديه مسرحيات تطاول ما ألفه المؤلفون المسرحيون ؛ وحسبه أن كلماته التى لم تبلغ الستين صحيفة لم تزل معرضاً لنواح كثيرة من حياة الجيـل السالف . معرضاً أُحسن تصويره أيما إحسان .

ولعلّنا نطيل كثيراً إذا حاولنا أن نحصى ما صوّره قاسم أمين من حياتنا المصرية يومذاك . فهو فى مرة يصف حياة خمسة من الشيوخ أحيلوا على المعاش فظلوا بعضهم لبعض صديقاً لا يكادون يفترقون . وقضوا أيامهم الأخيرة فى سعادة سكنوا لها فى صحبتهم الهانئة . وقضوا أوقات فراغهم فى لعب الطاولة وفى مناقشات بريئة صاخبة عن السنّ . قضى الموت بعد ذلك على أربعة منهم وبقى خامسهم منفرداً كئيباً لا يتكلم ولا يخرج من بيته؛ لا يدرى ماذا يصنع بحياته ويرقب الموت الذى يخلّصه منها .

وهو يكتب فى مرة أخرى عن متطفل دخل على صاحب دار كان قد دعا ستة أو سبعة من أصدقائه إلى الأكل فى داره ، ويصفه قاسم أمين فيقول : « فاضطر صاحب المنزل إلى أن يدعوه الى الأكل معنا ، فدخل أمامنا واختار لنفسه أحسن مكان ، وكان أول الجالسين . جلس على الكرسى القرفصاء فانفتح قفطانه وظهرت سراويله ؛ ثم برم كمّ القفطان والقميص الذى تحته برماً محكما فانكشف الساعد إلى المرفق فتمثل لى جالساً فى مكان من الميضأة يستعد للوضوء . اشتغل بالأكل ولم ينطق بكلمة أو يصغ لحديث . ولما كان بعيداً عن المائدة كان كلما يتناول شيئاً من الطعام يسقط بعضه على ملابسه . وكان يلقى العظام على مفرش المائدة . فلما امتلأ

بطنه أخذ ينكش أسنانه ويخرج منها فضلات الأكل فيقذفها من فيه بقوة يميناً وشمالا .

وأنت تقرأ له كل هذه الفقرات فتروعك الصور التى يصورها بأسلوب بسيط يكاد يبلغ حد السذاجة . اقرأ له قصة الفلاحَيْن والثعبان ، وقصة أخرى عن فتى مغرور يطلب وظيفة ، وفقرة ثالثة عن مصريين ذهبوا إلى متحف اللوفر فى باريس . كل هذه كانت بوادر شخصية أدبية تفننت فى الوصف ، وليتها أكثرت من الوصف وأطالت من الرواية .

***

ولابد لنا أن نتحدث عن أسلوب قاسم أمين :

لقد عاش فى عصر من عصور التحول اللغوى ، وكان أحد الكتاب الذين تأثروا بهذا العصر كما أثروا فيه . نقول إنه كان عصراً من عصور التحول لأن اللغة العربية فى مصر قبل هذا العصر كانت جامدة ولأنها كانت لغة ألفاظ مرصوصة تتقيد بالسجع المتكلف ولا يطابق لفظها معناها . كانت اللغة العربية كما قال المرحوم توفيق رفعت باشا فى بعض أحاديثه « قد انتهت فى صدر عصر المرحوم إسماعيل باشا إلى أن أضحت رواسب تجمعت فيها العكارات التى خالطتها من مدخل الفتح التركى . فهى بين عامية تشيع فيها التركية وبعض العبارات الافرنجية ، وبين عربية متعسفة متكلفة لا تمتد إلى

فكرة قيّمة ولا تتطاول إلى معنى جليل ، اتجاهها كله إلى إصابة غرض بديعى ، إن وافقت فى طريقها معنى وإلا فلأم المعانى الهبل » . أما العصر الذى يبدأ من سنة ١٨٨٠ وما بعدها فقد كان عصر تحلل من قيود اللفظ وكان كذلك عصر ابتكار فى المعنى وإحياء لألفاظ اللغة الدارسة حتى تقوم بحاجات المجتمع الجديد .

كان قاسم أمين كاتبا من هذه الفئة التى تحللت من الأسلوب القديم وكتبت بالأسلوب الجديد . ولقد تأثر باللغة الفرنسية فقد كان يقرأها بنهم وكان يكتب الفرنسية بأسلوب سَلِس منطق أخاذ . وكذلك كان يقرأ كتب الدين الإسلامى وكان يطّلع على ما يكتبه رجال الأدب الناشئون . فخرج من ذلك وله أسلوب عربى سلس جمع بين فضائل الأسلوب الفرنسى وبين مزايا الأسلوب العربى . فقد كان ينظر إلى اللغة كأنها تعبير صادق عن النفس ، فلم يتكلف ولم يتعمّل ولم يقف ليوفّق سجعة واحدة ، ولم يترك لفظا يسيرا مفهوما ليكتب لفظا آخر عسيرا غير مفهوم ..

لقد اشتهر أسلوب النثر الفرنسى بالوضوح ؛ تناولته أذهان الكتاب والنقدة الفرنسيين حتى بلغ مداه فى القرن التاسع عشر . وقد قرأ قاسم أمين لأغلب الكتاب الفرنسيين المعاصرين ، فخرج من قراءته بفكرة سامية عن الأسلوب طبقها على كتابته العربية ما استطاع إلى ذلك سبيلا . وتتلخص

فكرته عن أسلوب الكتابة فى هذه الكلمة التى كتبها يوازن فيها بين الأسلوب الأوروبى فى عصره و بين الأسلوب العربى :

« الكاتب الحقيقى يجتنب استعمال المترادفات ، فلا يأتى باسمين مختلفين لمعنى واحد فى مكان واحد ، لأن ذلك يكون حشوا مستهجنا ودليلا على فقر فى الفكر والخيال . ولكن إذا كان المقال يستدعى ذكر عدة معانٍ متقاربة يجمعها معنى واحد فاستعمال المترادفات الموضوعة لها حسن ؛ وقد يكون مطلوبا إذا كان لازما لتسهيل فهمها أو إظهار الفروق التى بينها . كذلك الكاتب المجيد لا يضع صفة بجانب الاسم إلا إذا اقتضى الحال أن يميزه بصفة مطابقة للواقع ؛ على أن الاعتماد على ذكر الصفات والمبالغة فيها بقصد التأثير هو أقل درجات فن الكتابة ؛ ويفضلها بكثير طريقة الكتاب الغربيين الذين يعوّلون فى الوصف على ذكر الوقائع وشرح ظروفها وتحليلها تحليلا دقيقا ، أو تشريح الإنسان وفتح جوفه وكشف ماخفى من أعصابه وسبرغور أحشائه ، والتسمع على نفسه لإدراك ما يدب فيها من النزعات والخواطر والأميال والحركات . ويصف منظر الشىء بهيكله العام بأجزائه كلها ليحدث فى نفس القارئ أو السامع صورة كاملة وشعورا تاما وأثرا باقيا » .

وإذن فقد كان يريد أن يتحاشى المترادفات ما أمكن ، وكان يريد أن يتجنب الصفات التى تلصق بالأسماء للتفخيم فحسب ، وكان يريد أيضا أن يصف

« الوقائع » الصغيرة ويشرح ظروفها حتى تتم صورة كاملة من صور الذهن .

أنت تقرأ له وصفا لجنازة من تلك الجنازات التى كانت شائعة فى الجيل الماضى ، فتخال أنك تطلّع على فِلْم سينمائى ، وتخرج من هذا الوصف وعندك صورة ذهنية تامة عن مثل هذه الجنائز «هؤلاء الفقهاء الذين يجر بعضهم بعضا، وليس فيهم إلا الأعمى والأعرج والأعور ويمشون بسرعة غير منتظمة لابسين ثيابا قذرة صائحين بأصوات مزعجة : كلمات تخرج من حناجر مختنقة بنغمات شنيعة ، وهذا النعش المحمول الذى يتخبط فيه الميت ويلتفت تارة إلى جهة اليمين وتارة إلى جهة الشمال ...

« وهؤلاء النسوة اللاتى صبغن أيديهن ووجوههن ، وعفرن بالتراب رءوسهن ، يمشين وراء النعش مشيرات بالمناديل إليه بإشارات مريعة مصحوبة بألفاظ مرتلة — ما هذا كله ؟ أمجمع مجانين أم نفر بهم مسٌّ من الشياطين ؟ أعوبة أطفال ؟ أم معرض كرنفال ؟ » .

ذلك مثل للأسلوب الأدبى الذى كتبه قاسم أمين . لا تستطيع أن تقيسه بغيره من أساليب الكتابة العربية القديمة ؛ لكن فيه شيئا مما قاله قاسم أمين حينما تحدث عن طريقة الكتابة عند الغربيين ، وحينما قال إن وصف الشيء بأجزائه كلها يحدث فى نفس القارئ أو السامع صورة كاملة .

لكن هذا الأسلوب الوصفى الذى رأيت طرفا منه فى هذا الذى نقلت

إليك لم يكن وافرا فى كتابات قاسم أمين . وأنت تعلم أنه لم يكتب بالعربية إلا كتابين هما تحرير المرأة والمرأة الجديدة وأن كتابه الثالث صغير لا يحتوى إلا على بضع كلمات . فلم يتح لقاسم أمين أن ينمى هذا الأسلوب الذى رأيت بدايته . أما أسلوبه فى كتابيه الأساسيين ففيه شىء من هذا لكنه أسلوب منطق جدلى . إنه يَذْكُرُ لك القضايا المنطقية كما يذكرها المحامى الذى يريد أن يكسب قضيته . فأسلوبه من هذه الناحية واضح لا يحتمل الشك ولا الغموض ، وقد يذكر لك سلسلة بأكملها من الحجج لإثبات قضيته ثم ينتهى بك إلى سلسلة أخرى من الأسئلة الإنكارية يمعن بها فى إثبات ما يرى . وما يزال بك حتى يقنعك بالحجج التى أوضحها الواحدة منها بعد الأخرى . فأسلوبه المنطقى يشبه فى كثير من النواحى أسلوبه الوصفى ، لأنه فى كليهما يحاول أن يوضّح الأجزاء حتى تكمل الصورة الذهنية ، وقد تكون هذه الصورة الذهنية وصفا أدبيا لشىء من الأشياء وقد تكون سلسلة من القضايا المنطقية تسوق الإنسان إلى استنتاج منطق واحد .

* * *

وقد كان لقاسم أمين فكرة سامية عن تطور اللغة وعن تقدمها من درجة إلى درجة . وكانت هذه شعبة من فكرته عن التطور التى بحثناها فى فصل سابق . كان يرى أنه يجب أن يُفتح باب الاجتهاد فى اللغة كما يُفتح فى

التشريع . وقد كان فى مصر فئة من الكتاب يحسبون أن اللغة العربية قد وسعت كل شىء ، وأنها ليست بحاجة إلى أن تتزود أو تستعير من اللغات الأخرى . كان عند هؤلاء نعرة جافة أو قل إنها كانت إقليمية متزمتة . كانوا يرفضون كل أسلوب جديد ، وكل كلمة جديدة . أما قاسم أمين فقد كان يرى أنه لا حياة للغة لا تتطور . فاللغة نفسها تتأثر بالبيئة التى هى فيها ، وما دامت البيئة الإنسانية فى تطور مستمر فإن اللغة فى تطور مستمر أيضا . واللغة التى كان يريد أن يحتفظ بها أهل القرن التاسع عشر هى لغة الحضارة العربية فى القرن الثامن الميلادى لولا أنها كانت قد فقدت كثيرا لما أهملت علومها وآدابها . لذلك كان يرى قاسم أمين أن باب الاجتهاد فى اللغة يجب أن يُفتح على مصراعيه وأن الابتكار والاستعارة من اللغات الأخرى كليهما وسيلة لتقدم اللغة وفى ذلك يقول : « يظهر أن باب الاجتهاد أُغلق فى اللغة كما أقفل فى التشريع فقد صار من المقرر بيننا أن اللغة العربية وسعت وتسع كل شىء » .

« لكى يكون هذا الاعتقاد صحيحاً يجب أن نفرض أن هذه اللغة نتيجة معجزة ، فظهرت كاملة من يوم وجودها فى العالم . وهذا يناقضه قيام الدليل على أن جميع اللغات خاضعة لقوانين التحوّل والرقى العام ، وتابعة فى أطوارها لسير الإنسانية ؛ فهى إذن مظهر من مظاهر غريزتها الطبيعية التى لا تزال

تُنتج وتُبدع كما فعلت فى الماضى . ولا أدرى لماذا يريد قومنا أن يستبعدوا من اللغة العربية الكلمات الفصيحة وطرق التعبير الجميلة التى نسمعها أحياناً فى لغة العامة بحجة أنها لم ترد على لسان العرب» .

«نحن خلفاء العرب فى لغتهم فكل ما تخترعه ملكاتنا فى اللغة يُعَد عربياً بالطبع» .

* * *

كانت هذه أفكاراً ثورية لكنها تدلك على أنه كان يحسّ بحاجتنا إلى الإصلاح فى ناحية اللغة . وقد يبدو رأيه هذا غريباً لبعض الذين لا يؤمنون بالتجديد ، قد يبدو غريباً لبعض الذين يرون أن لغة العرب لها قداسة تجعلها أعلى من أن تمس . لكنه لا يبدو غريباً لمن يتتبع نمو لغة كالإنجليزية . ففى الحق إن اللغة الإنجليزية عاشت كَلاًّ على اللغات الأخرى فى كل أطوارها . هناك ذلك الفيض من الكلمات الإغريقية واللاتينية ، ثم هناك آلاف الكلمات التى استعارتها لغة الانجليز من الفرنسية والإيطالية والأسبانية فى عصر النهضة ، وهناك بعد ذلك آلاف الكلمات الأخرى التى استعارتها هذه اللغة من البلاد التى شملتها الامبراطورية البريطانية ؛ بل هناك كلمات انتحلتها اللغة الانجليزية من لغة العرب ولغة الفرس ولغات الهند ؛ فاللغة الإنجليزية أصبحت أغنى لغات العالم لأنها كانت مرنة ولأنها التقت بالثقافات الأجنبية

فتأثرت بلقائها واستعارت منها المفردات واصطفتها وأدخلتها فى معجمها .

بل قد لا يبدو الرأى الذى ذهب إليه قاسم أمين غريباً لمن درس أطوار اللغة العربية نفسها. فقد صاحبت اللغة العربية حضارة الإسلام الأولى ولم يتحرج العرب من أن ينتحلوا لأنفسهم كلمات زادوا بها لغتهم . فى لغة العرب ألفاظ فارسية ، وفيها ألفاظ إغريقية ، وفيها أيضاً مفردات تمّت فى أصولها إلى العبرية والسريانية . و إذن فقد كانت لغة العرب مرنة فى عصورها الزاهرة . وهذه المرونة نفسها هى التى دعا إليها قاسم أمين ، وهى نفس المرونة التى مايزال فريق كبير من اللغويين يدعون إليها . حرية الاصطناع والابتكار فى الألفاظ وأخذ أساليب العامة الحبيبة إلى قلب القارئ العربى ، وتصفية كل ذلك وتنقيته : هذه جميعا أسس يجب أن يقام عليها بناء اللغة على أن يكون كل ذلك تحت أعين الرقباء الأخصاء .

***

على أن لقاسم أمين رأيا آخر أشد ثورة على اللغة العربية وأبعد من رأيه الأول من وجهة التنفيذ . فقد ذهب إلى أن الذى يعطّل اللغة العربية هو الإعراب . إنه يرى أن اللحن شائع بين الذين يقرأون اللغة العربية ، وأن قواعد النحو نفسها هى التى تحول دون الفهم . وهو يشرح رأيه فى كلمات ما يزال يرددها بعض المفكرين كلما ضاقوا بالإعراب وقواعد اللغة .

يقول قاسم أمين فى شرح رأيه ما يلى :—

« لم أرَ بين جميع من عرفتهم شخصا يقرأ كل ما يقع تحت نظره من غير لحن . أليس هذا برهانا كافيا على وجوب إصلاح اللغة العربية ؟

« لى رأى فى الإعراب أذكره هنا بوجه الإجمال وهو أن تبقى أواخر الكلمات ساكنة لا تتحرك بأى عامل من العوامل بهذه الطريقة . وهى طريقة جميع اللغات الأفرنكية واللغة التركية أيضا — يمكن حذف قواعد النواصب والجوازم والحال والاشتغال الخ . بدون أن يترتب عليه إخلال باللغة إذ تبقى مفرداتها كما هى .

« فى اللغات الأخرى يقرأ الإنسان ليفهم ، أما فى اللغة العربية فإنه يفهم ليقرأ . فإذا أراد أن يقرأ الكلمة المركبة من هذه الأحرف الثلاثة « ع ل م » يمكنه أن يقرأها عَلَمٌ أو عِلْمٌ أو عُلِمَ أو عُلِّمَ أو عَلِمَ أو عَلَّمَ . ولا يستطيع أن يختار واحدة من هذه الطرق إلا بعد أن يفهم معنى الجملة فهى التى تعين النطق الصحيح . لذلك كانت القراءة عندنا من أصعب الفنون » .

ولا شك أن هذه مشكلة أخرى من مشاكل اللغة العربية لكنا نرى أن قاسم أمين قد أسرف حيث قدّر العلاج . قد لا يبدو أمر استعارة المفردات والألفاظ غريبا لأن ألفاظ اللغة نفسها فى تطور دائم ولأنها مهما استعارت

أو انتحلت من ألفاظ اللغات الأخرى فهى لن تفقد شيئا من كيانها . فإذا أنت استعملت « الوابور » أو « الأتوموبيل » فى كتابتك فأنت لم تضحّ بشىء من لازمات اللغة . أما إذا أنت حاولت أن تتجاهل الإعراب والقواعد فإن لغتك لن تكون لغة عربية بل قل إنها لن تكون أية لغة معروفة حتى الساعة .

ذلك بأن لكل لغة ميزات تمتاز بها وأسسا تقوم عليها ؛ أو قل إن لكل لغة تركيبية خلقا خاصا لاتكون لغة إلا به . واللغة العربية لغة تركيبية تمتاز بأحوال البناء والإعراب ، وتختلف فيها المعانى وتتشكل حسب الحركات التى نراها فى آخر كل كلمة من كلماتها . والفاعل والمفعول فيها يختلفان باختلاف الحركة ، وقل كذلك فى حالات الإعراب الأخرى . وليست حالات الإعراب هذه إلا حالات تتغير بتغير الفكرة . وإذا كان النحويون قد أسرفوا فى خلق حركات الإعراب وحركات البناء ، وإذا كانوا قد فرّقوا بين العلامات الأصلية والعلامات الفرعية ، بل إذا كانوا قد ميّزوا بين الإعراب التقديرى والإعراب المحلى ، فإنه لم يَدْعُهُم إلى ذلك إلا الأفراط فى الدقة والسخاء فى الاصطلاحات وإلا حَدَ بهم على أن يستكثروا فى اللغة من المعانى التى لا شك أنها تتضح وضوحا ظاهرا حينما ندقق فى أمر الحركات والعلامات .

أما إذا نحن وقفنا بالسكون عند آخر كل كلمات اللغة العربية فإن هذا فى نفسه قتل لروح اللغة . إن هذا معناه أن هذه الألوان التى تروح وتغدو عند كتابة اللغة العربية سوف تنطمس فيبدو وجه اللغة حالكا أغبر . زد على ذلك أن منطق اللغة نفسه وهو قائم على حركات الإعراب سوف يتصدع ، بل زد على ذلك أيضا أن ميراثنا من الشعر والحكمة سوف يتزايل لأن أساس الشعر العربى هى تلك الأنغام التى تؤلفها حركات الأعراب . وليس هناك وجه للمقارنة بين اللغة العربية و بين اللغات الأخرى فى هذا الأمر لأن هذا الأمر قد اختصت به اللغة العربية وحدها .

إذن فلم يكن قاسم أمين موفقا كل التوفيق فى العلاج الذى رآه ليجتنب اللحن . ولا نظن أن الذين لفّوا لفّه ممن جاءوا بعده كانوا موفقين . وليس علاج المشكلة عندنا فى حذف حركات الأعراب كما ذهب إليه قاسم أمين بل علاجها فى طريقة التدريس .

فمداومة التدبر و إحسان طرق التعليم وغير ذلك من المؤثرات الفعالة كفيلة بأن تجعل للغة العربية قيمة تركيبية . ولكن لن يكون علاجا أن نقف بالسكون فى آخر كل كلمة من الكلمات إلا إذا حاولنا أن ننشئ لغة أخرى غير العربية .

* * *

وعلى الرغم من كل ذلك فقد رأيت كيف كان قاسم أمين يحس بأن اللغة فى تحول . بل لقد رأيته متأثرا بالأسلوب الفرنسى ثائرا على الأسلوب الضعيف الذى يتقيد بألفاظ مرصوصة فقدت ألوانها ، ثم رأيته بعد ذلك يقترح إصلاحا للغة لم يوفق فيه كل التوفيق ، لكنه كان من أول الذين لمسوا حاجتنا إلى الإصلاح . وقيام المجمع اللغوى بعد موته بثلاثين سنة كان دليلا على حاجتنا إلى الإصلاح اللغوى ولا زالت المشاكل التى أثارها جديدة ماثلة أمامنا فيما نقرأ وفيما نسمع .

آثاره

لا بد لنا بعد أن تحدثنا عن قاسم أمين من مختلف نواحيه أن ندرس الأثر الذى خلّفه فى الحياة المصرية . وحياة المصلح وحدة فى نفسها تبدأ من بدء دعوته لكنها لا تنتهى بموته مطلقاً . حياة المصلح قد تمتد أجيالاً بعد موته .

ولقد كانت حياة قاسم أمين وحدة خاصة تعدّدت جوانبها ، كانت وحدة من الأفكار والآراء والمبادئ والعقائد ، وكانت وحدة يميّزها الذكاء وسعة العقل وبعد النظر . لكنّ هذه الوحدة لم تنقطع حينما توفى صاحبها فى ليلة الثالث والعشرين من شهر أبريل سنة ١٩٠٨ . بل هى ماثلة إلى اليوم لأن هذه الأفكار والمبادئ لا زالت حيّة تروح وتغدو فى البيئة المصرية كلما قلبت النظر فى أية ناحية من نواحيها .

لقد ظلّ الكُتّاب فى مصر يرجعون إلى آراء قاسم أمين كلما واجهتهم إحدى المشاكل ، وظلّ المفكّرون يضربون به المثل فى الشجاعة والجرأة . ذلك لأن آثار قاسم أمين كانت جميعها تتصل بأسس الحياة المصرية . فهو لم ينظر إلى الساعة التى هو فيها بل نظر دائماً إلى المستقبل ، وهو لم يختص تفكيره بسنة أو بضع سنين ، بل شغل تفكيره الجيل بعد الجيل ، لذلك توفى قاسم أمين ، لكن المشاكل التى درسها لا زالت ماثلة أمامنا ، بعضها قد أتيح لها أن ينحلّ ، وبعضها الآخر جاثم يريد أن ينحلّ .

***

ما تزال أمامنا مشكلة التربية . فهل أفلحت مدارسنا فى تربية الأطفال والأولاد تربية حرة مستقلة تقوم على العمل لا على القول ؟ وهل أفلح المربون عندنا فى أن ينتزعوا حب النفس والأنانية من صدور الأفراد ؟ ثم هل أفلح المصريون فى أن يتخذوا من العلم قوة يصدون بها أمام المغيرين من أهل الغرب ؟ لا زالت كل هذه المشاكل ماثلة أمامنا نجاهد فى حلّها . ثم هل انتظمت العائلة عندنا حتى استطاعت أن تخرّج فتياناً متحلّين بأجمل الصفات وهل بلغت التربية المنزلية عندنا ما كان يصبو إليه قاسم أمين . كل ذلك لا زال حديثاً يعتوره الشك من كل جانب .

ثم ماذا حدث فى مشاكل الوظائف والموظفين ؟ لا زالت الوظيفة فى الحكومة هى الغاية التى يسعى لها الأفراد ، وما زال الغرض من العلم عندنا غرضاً معاشياً على الرغم من أن قاسم أمين قد دعا إلى إنشاء الجامعة حتى يُطلب العلم لذات العلم . وسيظل قاسم أمين مذكوراً كلما ذُكرت رسالة الجامعة وسيظل مذكوراً كلما دُرست مشكلة الموظفين . لقد كان يرى أن الوظيفة الحكومية فرصة لتحقيق غرض وطنى أسمى ، وكان يرى أن فى القيام بواجب الوظيفة إرضاء للضمير الوطنى . كم من الموظفين عندنا يضعون نصب أعينهم خدمة الوطن متجردين عن التحيز والهوى ؟ لا شك أن كثيراً من أصحاب الوظائف لا زالوا فى حاجة إلى دراسة كلمات قاسم أمين .

وماذا حدث أيضا فى اللغة ؟ لقد تطورت اللغة العربية تطوراً رشيدا فى السنوات الست والثلاثين الماضية . وتحسن أسلوب النثر حتى أصبح وافياً بكل غرض من أغراض الكتابة . ثم لقد أنشىء مجمع فؤاد الأول للغة العربية ليحلّ مشاكل اللغة . وعلى الرغم من كل ذلك فنحن لا نزال ننتظر تلك الدفعة التى تيسر اللغة وتوفق بين الأصل العربى الصحيح وبين حاجات العامة . وقد كان قاسم أمين أول من استكشف هذه المشكلة وأول من تحدث

عنهـا حديثاً ردّده الناس حتى الساعة التى نحن فيهـا على الرغم من أنه بالغ فى إنكار الإعراب وما يحوط مسائله من صعاب .

ثم ماذا ؟ ثم مشكلة المرأة ؟ .

لقد كان أثر قاسم أمين عظيما جدا فى تاريخ المرأة المصرية . وإليه يرجع الفضل فى النهضـة النسائية التى حدثت فى مصر فميزتها عن سائر أمم الشرق الأدنى . وقد كانت صيحة قاسم أمين إيذانا بتحرير المرأة على الرغم من أن البيئة المصرية فى عهده لم تكن مهيأة لمثل هذا التحرير . لـكن شأن الإصلاح الاجتماعى أن يكون بطيئاً خفيا . وقـد كان أثر الدعوة التى قام بهـا قاسم أمين بطيئة خفية كذلك . ثم تهيأت الظروف لتحقيق هـذا الإصلاح . فـكانت النهضـة النسائية التى قامت فى مصر بعد الحرب الـكبرى . وقد تناول الـكثير من الـكتاب والـكاتبات مذهب قاسم أمين ، بل لقـد أنشئت مجـلات خاصة للدفاع عن المرأة . ثم إن باحثة البادية كانت أول مصرية مسلمة جاهرت بالدعوة لمذهب قاسم أمين وقد ألقت فى هذا الموضوع سلسلة من المحاضرات فى الجريدة وتوفيت فى سـنة ١٩١٨ ، وهى تـكتب كتاباً فى « حقوق النساء » .

لم تنل المرأة الأوروبية حقوقها إلا بعد الحرب الـكبرى حينما شاركت المرأة الرجل أعمـال الحرب ، وحينما رأى الرجل أن المرأة تستطيع أن

تكون عاملا فعّالا فى حياة الجماعة . كذلك فى مصر فقد ظلت البيئة المصرية مزوّرة عن المرأة كل الازورار حتى قامت مصر بالحركة الوطنية سنة ١٩١٩ . وهنا حدث أمر لم يكن فى حسبان الكثيرين ، فقد اشتركت المرأة الوطنية التى قامت فى طول البلاد وعرضها . وأصبحت لجان النساء تُكوّن إلى جانب لجان الرجال ، بل لقد تعرّض النساء لما تعرّض له الرجال من العنت والتضييق . وكذلك كان للتقدم السياسى الذى بلغته مصر وكان للمرأة نفسها بعد قاسم أمين أكبر الأثر فى تحرير نفسها .

وجاهد الاتحاد النسائى فى أن يبلغ ما ذهب إليه قاسم أمين . وكان للاتحاد النسائى مطالب وكان له منهج وضع على أساس ما كتبه قاسم أمين . ووفق الاتحاد النسائى إلى إشراك الفتاة مع الفتى فى كل أنواع التعليم ، وإلى تقرير السادسة عشرة سنا أدنى لزواج البنت ، وإلى إصلاح بعض نظم الأحوال الشخصية ووضع حد لفوضى الطلاق . وإلى إطالة مدى حضانة الأم للطفل. ولكن بقى أننا ما زلنا إلى هذه الساعة نشعر بأن الطريق مازال وعرا ، وأننا لم نستقر بعد على حال فيما يختص بالنساء فى حياتنا العامة . فشطر من نساء مصر لا زلن فى حياة الجهل والفاقة التى عاشتها أمهاتهن فى مبدأ القرن التاسع عشر ، وشطر آخر لا زلن متحجبات يعتزلن حياة الرجال ،

وشطر آخر قد خرجن إلى الحياة العامة يضطربن فى الأسواق ، وشطر آخر قد تبرجن وقلدن حياة باريس التى سخط عليها قاسم أمين .

ثم إن الحركة النسائية فى أوروبا قد سبقت الحركة النسائية فى مصر أشواطا بعيدة . كسبت المرأة هناك حقوقها فكان فى انجلترة وأمريكا رد فعل لهذه الحركات السياسية . وآمنت المرأة هناك اليوم بالمنزل ، وأصبح الإصلاح الاجتماعى ينطوى على إصلاح الأسر الفقيرة المعدمة أولا . وقد تفتحت أعين المصلحين والمصلحات هناك على أن الحركات السياسية النسائية لم تكن إلا موجات تؤثر فى السطح لكنها لا تتدسّى إلى الصميم .

وسيعنى المصلحون بعد هذه الحرب بالأسر الفقيرة ، وستكون المرأة الفقيرة صاحبة الأسرة الكبيرة هى أساس كل إصلاح اجتماعى فى المستقبل .

* * *

تلك آثار قاسم أمين ! إنها مشاكل حاول أن يحلها ولكنها لم تنحل بعد . على أن الرجل كان القوة الدافعة التى أيقظت الجيل الماضى لحل كل تلك المشاكل . لقد كان الأول فى كل شىء : أول من دعا إلى تطور اللغة وإلى إلغاء الوقف أو تنظيمه وإلى إنشاء الجامعة المصرية وإلى التربية .

كما كان أول من دعا إلى تحرير المرأة دعوة شاملة، وكان يمثل خير ما كان فى جيله من هذه الأفكار . وقد كانت حياته كما قلنا وحدة بدأت حينما ولد فى أول ديسمبر سنة ١٨٦٣ لكنها لم تنته بموته فى ٢٣ من إبريل سنة ١٩٠٨ . ذلك بأن حياته كانت ملتقى للأفكار والمبادئ . وقد يموت الإنسان ، وقد يفنى الجسد ، وقد يصبح هشيما تذروه الرياح . أما الأفكار والمبادئ فهى حية لا تموت .

سلسلة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

أعلام الإسلام

— عمرو بن العاص	للأستاذ عباس محمود العقاد	صدر فى مارس سنة	١٩٤٤
— منصور الأندلس	« على أدهم	« « ابريل	«
— بشار بن برد	« ابرهيم عبد القادر المازنى	« « مايو	«
— المعز لدين الله	« ابراهيم جلال بك	« « يونيه	«
— محمد عبده	للدكتور عثمان أمين	« « يوليه	«
— أبو نواس	للأستاذ عبد الرحمن صدقى	« « أغسطس	«
— مهدى الله	« توفيق احمد البكرى	« « سبتمبر	«
— محمد على الكبير	« شفيق غربال بك	« « اكتوبر	«
— الفارابى	للأستاذ عباس محمود	« « نوفمبر	«
— قاسم أمين	« أحمد فاكى	« « ديسمبر	«

الكتاب الحادى عشر

ابن رشد الفيلسوف : للأستاذ محمد يوسف موسى

يصدر فى يناير سنة ١٩٤٥

دائرة المعارف الاسلامية

أوفى مرجع عن الحضارة الإســـــلامية

تصدرها

لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية

احمد الشنتناوى . عبد الحميد يونس

ابراهيم زكى خورشيد . حافظ جلال

تم إصدار المجلدات الخمسة الأولى

وصدر العدد السادس من المجلد السادس

الاشتراك السنوى عن ستة أعداد خمسون قرشاً

ادارة اللجنة

١٤ شارع حسن الأكبر مصر . ت ٤١٣٧٥

UMBIA [illegible]RSITY LIBRARIE[illegible]
[illegible]ted

893.7112 K526

893.7112 K526

Khaki

Qasim Amin.

SEP 2 4 1948

BINDER
R-106

NOV 15 1949

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU07839030